دماء مقدسة
رواية
إبداع
محمد أمير

محمد أمير

دماءٌ مقدَّسة

رواية

الكتـــــــــــاب: **دماء مقدسة**

المـــؤلـــــــف: **محمد أمير**

تصميم الغـــلاف: **عصام أمين**

المراجعة اللغوية: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

رقـــم الإيـــداع: 2015 / 00000

الترقيـم الدولـي: 978 - 977 - 779 - 049 - 9

الإخـراج الفنـــي: **مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع**

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 97 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0223952354 - **موبايل:** 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

محمد أمير

دماءٍ مقدَّسة

رواية

الإهداء

بما أنه أول أعمالي، فالاهداء هنا سيكون إلى كل من ساعدني بشكل أو بآخر لوصول هذه الرواية إلي أيديكم ، فطريق هذه الرواية لم يكن بالهيّن.

أولاً، أُهدي هذا العمل إلي أخي و ابن عمتي الشهيد بإذن الله هشام محمد صلاح الذي استشهد برصاص الغدر دفاعًا عن منزله في أحداث المنيل ٥ يوليو ٢٠١٣، و من كان له فى حياتي أثر في اتجاهي للقراءة فى أول سنوات حياتي ، رحم الله روحه الطاهرة.

ثانيًا، أهديها إلي أمي الحبيبة التي طالما كانت الدافع لأكمل في تحقيق حلمي، والتي طالما أقنعتني أن أكمل كتابتها و دائمًا ما كانت تشجّعني على الاطلاع و القراءة.

ثالثًا، أهديها لأبي الرجل العظيم الذي كان أول من أعاد كتابة أحد أعمالي القديمة عندما كنت لم أتجاوز العاشرة من عمري.

رابعًا، أخواتي فلولاهن ما كنت كتبت، و لولا تشجيعهن المستمر ما كنت أكملت.

خامسا، أهديها الي بعض أصدقائي و رفقاء الدرب الذين ساعدوني

بشكل أو بآخر على أن أكمل مسيرتي في لحظات كنت بالفعل قد قررت أن أتوقف، وربما قررت أن أنتحر وقتما أظلمت الدنيا من حولي، هم يعرفون أنفسهم فلا داعي لذكر أسماء.

سادسًا، أهديها لمديريني في العمل وبعض الزملاء، فهم من أعطوني الدفعة والأمل لأكمل مشوار الكتابة ودائمًا ما كانوا يرفعون من معنوياتي بالتشجيع الدائم و الطاقة الإيجابية، و هم أيضًا يعرفون أنفسهم فلا داعي لذكر أسماء.

سابعًا، أفراد عائلتي، بعض الأشخاص الذين لن أراهم ثانية، مثل بنت كنت أحبها، و بنت تزوجت فتركتني، و صديقة وافتها المنية، وصديقة اختلفنا في الرأي فأفترقنا، أرجو أن يصلهم صدى كلماتي فتصل رسالتي إليهن.

و أخيرًا، أهديها إلي عيد ابراهيم عبد الله مدير وصاحب دار النشر، فهو لم يكن أبدًا مجرد صاحب عمل ، هو الوحيد الذي استشعرت منه الحب الأخوي الحقيقي ، و لولاه بعد الله سبحانه ما كانت روايتي ستري النور ،

شكرًا لكم جميعًا

حسنًا، هو أول لقاء بيننا، ربما شاءت الأقدار وكان بيننا لقاء آخر، ولكن دعونا نحلم بداخل صفحات هذه الرواية قليلاً.

في بداية الأمر أحب أن أوضح بعض النقاط التي قد تقف حائرًا أمامها وأنت تتصفح هذه الأوراق بشغف واضح أو بملل قاتل.

أولاً: أحداث هذه الرواية من محض الخيال، إنما أحداثها التاريخية فحقيقية.

هما روايتان منفصلتان لهما نفس النهاية..

شخصيتان يجمعهما قدرٌ واحد وشخصٌ واحد مع اختلاف الأزمان والأحداث.

لم يتقابلا من قبل، ولم يكُن لهما سابق تخطيط.

ولكن القدر له رأي آخر.

فقد يكونان السبب في إنقاذ العالم.

قد تندهش لما سيحل من تضارب الأحداث، قد تنفعل لدرجة تهشيم عظام من يقاطع سيل أفكارك، وقد تشعر بالضجر فتلقي الرواية في ملل متثائبًا باحثًا عن فيلم ما ينسيك حروف هذه الرواية المملة، أو تضطر لتهشيم عظام مَن قاطعك من الملل، في كلتا الحالتين ستهشّم عظام أحد ما.

لا، لن نجري تجارب على مَن يقرأونها، على غرار مخرجي هوليوود، فنضع كاميرات في غرف من يقرأونها، ويسجل تفاعلاتهم علماء من وراء زجاج عازل للصوت، وبعد شهور يخرجون علينا بنتيجة البحث فرحين بالنتيجة، ويقولون: «الرواية مملة بنسبة ٩٩٪»، ويفتحون زجاجات الشامبانيا الثائرة يتجرّعون منها في انتشاء.

سنترك هذا للقارئ.

***

لماذا «دماء مقدسة»؟

سنعرف هذا معًا بين صفحات الرواية، ولكن الأهم هو ما عليك أن تعرفة الآن، هناك دائمًا ارتباط جذري بين الفعل ورد الفعل.

السيدة التي تضرب الودع تطلب من زبائنها أن يهمسوا إلى الودع قبل أن تبدأ في رميه، وتشكيل مجرى حياتهم على الرمال، قبل أن تبدأ في سرد مقتطفات وسراديب مستقبلهم الوعر.

هي مَن تحدد أقدارهم مما تراه يسيل ويتشكّل على موجات الرمال.

وهذا ما يحدث في خبايا الرواية، هما مجرد زبونا «ضاربة الودع».

واحد منهما سيكون صاحب الدماء المقدسة، والآخر سيمنعه، ولكن دعونا لا نحرق الأحداث.

***

كان «يحيى» و«محمد» زبونين دائمين لدى ضاربة الودع، وهما من سنقرأ قدرهما معًا..

هما «القتيل» و«ذو العمامة الزرقاء».

***

دعونا من التفاصيل التي لا طائل منها، ولنرَ ما الذي سيحدث؟

ولكنّي لا أتذكر أي شيء يا «محمد»، بالفعل لا أتذكر، ولماذا سأكذب؟ وماذا سأستفيد؟

ستتذكر فهى ليست أول مرة يا «يحيى»، فقط حاول وأنا سأساعدك.

حتى ذلك الكهف لا أظن أنني رأيته من قبل، ثم كيف لي أن أعرف كل هذه الوجوه؟!

يحيى، لا تيأس، إذا حاولت قليلاً ستتذكر، الأمر لا يحتاج إلى أي عبقرية، فقط خُض التجربة وسأرافقك، فالقدر لم يمهلنا إلا قليلاً.

***

صوت حاد يهمس: ها هو ذا، ذلك الطفل.

صوت آخر: حسنًا حسنًا، أين أخفيت قطرات الدماء؟

صوت حاد يهمس: إنها في يدي ها هي ذا.

صوت آخر: وماذا تنتظر؟ اذهب واحقنه بها، وعندما تنتهي منها خُذ الطفل كما أمرنا ربنا؛ ليكمل نومه في مضجعه الجديد.

صوت حاد يهمس: سلام على ربنا فقد حان الوقت للخروج.

***

القتيل

(لنا جميعًا آلات سفر عبر الزمن، منها ما يعيدنا إلى الوراء، وهذه اسمها الذاكرة، ومنها ما يدفعنا إلى الأمام وتلك نسميها الأحلام).

Time machine

هي: حبيبي ألن تتعشى معي؟

هو: لا يا أمي، لن أتعشى، ورائي الكثير من الاستذكار.

ولكن العشاء يقوي الذاكرة يا ولدي، لقد أحضرت لك السجق الذي تعشقه.

جرى ريقه، لكنه نظر إلى الأرض.

لا يا أمي معي كوب الشاي، سأستذكر في الشرفة قليلاً ثم أنام.

حسنًا يا «يحيى»، ربنا يوفقك.

أمي، لماذا لم تخبريني أو تقصّي عليَّ أخبارًا عن جدي إلى الآن يا أمي؟

قالت وهي تهرب بعينيها بعيدًا عن التقاء أعينهم:

- سأذهب؛ لأكمل العشاء.

***

الليل.. الهدوء.. الظلام.

أجواء تضفي سحرًا خاصًا على أي شاب في مقتبل عمره، خاصة إذا كان حالمًا، من النوع الذي يرسم خطوط ودوائر مستقبله من شرفة حجرته، يحدد مسار حياته عن طريق خطوط متشابكة على أوراق بيضاء، خاصة إن كان مثل «يحيى»، طالب الهندسة المتفوق الحالم، الملتزم فعليًّا بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ.

كان شابًّا كأي طالب يدرس الهندسة، عاديًّا هو أقل وصف يقال عنه، يرتدي العوينات التي تشبه مؤخرة الكوب الزجاجي، قصير القامة، مثله كمثل أي شاب مما يطلق عليه الفتية «دحِّيح»، قضى معظم فترات مراهقته يطالع الكتب، ويحفظ المعادلات، ويحلّ معضلات صعبة، ترك اللهو في سنوات عمره الأولى المزدهرة؛ ليحقق أمانيه التي كانت أكبر من عمره بمراحل، كان يترك الكرة واللهو؛ ليستذكر دروسه في نهم، يعدّل من وضع عويناته على أنفه الأقنى وهو يتمنى أن ينتهي من الدراسة سريعًا؛ ليركض كما يفعل ذووه، كان يراقب الأطفال والمطر ينسدل عليهم في سعادة غامرة فيزدادون مرحًا ويزداد هو اكتئابًا، هو يريد أن يفوز بـ«نوبل» أو أي جوائز علمية، أو على الأقل أن يكون مديرًا لوكالة ناسا، أو حاكمًا سياسيًّا محنكًا، وربما لاعب كرة مشهورًا، مع العلم أنه لم يمارس الرياضة في حياته!

هو يرى نفسه في المستقبل مرتديًا البالطو الأبيض المقدس لدى العلماء، ويقف في مختبر ما وقد تناثر شعره الأبيض على جانبَي رأسه؛ ليصرخ في وجه الجميع: «وجدتها»، كما فعل أرشميدس من قبل عند اكتشافه لقانون الطفو.

يرى الجوائز والتكريمات والشهادات تكتظ على الحائط في منزله، وهو يتنهد في سعادة.

هو لم ولن يتعرف على فتاة مطلقًا؛ بل كان يعارض حتى الفكرة ذاتها، فهو يرى أن مستقبله العلمي أهم، هو يريد من أمه أن تتفاخر به بين أفراد عائلته بـ«يحيى الذي رفع رأسي»، وهو يستعرض جوائزه التي سينالها أمام الجميع، حتى وإن كانت جائزة «جرامي» الفاشلة.

«ها أنا ذا قد تفوقت أيها العالم القاسي، لست مجبرًا على تكوين العضلات أو التقاط الصور بجانب ما يطلقون عليهم (الجميلات)، ها أنا ذا أفضل منكم جميعًا ومن (إيهاب) الذي كان يتنمّر عليَّ هو ورفاقه، ويستعرض جسده السمين على جسدي الهزيل، ها هو ذا يصول ويجول فى كليته الخاصة ذات المصاريف العالية، وأنا أدرس في كليات القمة، اااااخ يا لها من ذكريات أليمة!

العام هو ٢٠٠٩

يجلس كعادته شاردًا في شرفته الخاصة الملحقة بغرفته التي كانت -وما زالت- المهرب الوحيد لأفكاره اليافعة، يحتسي الشاي المعتاد، ويفكر في حبيبته الخيالية التي استوحاها من فيلم أجنبي ما، بشعرها

المتناثر الأصفر والنمش يكسو وجهها، يسترجع جسدها في عقله عندما كانت تتهادى مع حبيبها على الفراش، وكانت وقتها فعليًّا لا ترتدي شيئًا، يسرح مع كلمات الأغاني القديمة بألحانها الساحرة، وأصوات الخدش المميزة على أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب، نتيجة التسجيل من الجرامافون القديم، تداعب أذنه، هذه كانت لذته الوحيدة في حياته الرتيبة المملة، فقد كان بالفعل يمتلك أذنًا موسيقية نادرة، لو كان في بعدٍ أو زمنٍ آخر لناطح برأسه مكانة جوخ أو موتسارت، كان يستمع لها وحده، يستشعر بالنشوة وحده، يحاول الإحساس بها وحده، يحاول أن يصل بفكره ووجدانه إلى أقصى درجات الاستمتاع بالحياة، فهو لا يحتاج إلى أحد، تمامًا مثل النباتات التي تعتمد في غذائها على أوراقها.

نعم أنا نبتة نادرة، غدًا ستقدرون قيمتي يا بقر.

هو الخالي من التجارب، الوحيد من نوعه، هو الذي جلس على المقهى أول مرة في مرحلة الجامعة، ولم يدخن سيجارة قط في حياته.

يخاف كثيرًا من التجربة، هو الضمير الذي لا يزال حيًّا، وهو الذي ستأتي عليه الحياة كثيرًا عندما يضطر على مواجهتها يومًا ما، طالما كان يتمنى معرفة الحقيقة، السبيل في وجوده على وجه الأرض؟ لماذا خُلق؟ لماذا يتنفس ويأكل ويحلم وهو حي يرزق؟ هل سيغير في مجرى الحياة شيئًا؟ أم سيعيش ويموت ولن يسمع عن سيرته أحد ما؟!! طالما كانت تراوده هذه الأفكار ويسرح في تخيلات يخلقها عقله، أحلام

كثيرة راودته وهو يحرر العالم من شر ما، شخص ما طالما طارده في منامه أعور العين يضحك في سخرية، ويقول بصوت يرتج له نبض قلبه الهزيل: «هاهاهاهاهاه لقد اقتربنا يا يحيا!!!!!».

دائمًا ما كان يفكّر: لماذا لا تريد أمي إخباري عن جدي؟ لماذا دائمًا تكتفي بأنه كان بطلاً وتوفي في ١٩٤٨ فقط؟

كان هائمًا في كل هذا وهو يريح أرجله الهزيلة على مقعد يضعه أمامه يستخدمه؛ ليفرد عليه قدميه، كان مستمتعًا بالأغاني والشاي، فجأة، وفى لحظة من لحظات شروده، بزغ نجم من السماء قطع لحظة شروده الخاصة، نجم يقترب من شرفته، منه هو بالذات، خرج من شروده قلقًا وهو يرتجع ما سحبه إلى فمه من الشاي على أرض الشرفة، هبّ واقفًا في توتر عارم ويده تهتز؛ لتسكب ما تبقى من الشاي، نظر بقلق، وتسارعت ضربات قلبه وهو ينظر إلى الضوء المقبل، شعاع يخترق السماء يتجه إليه، يخترق كل القوانين الفيزيائية التي درسها في حياته القصيرة، لو رآه «أينشتاين» لجذب شعره المتناثر وألقاه أمامه، وهو يدبدب على الأرض كالأطفال، شلت حركته وتفكيره، وقف كمناة الثالثة الأخرى وقتما حطمها أحد الصحابة بعد الفتح، ودقّات طبول قلبه فاقت طبول المعارك، نظر حوله علّه يرى أحدًا ما يرى ما يراه، ولكن الشارع أمامه كان خاليًا كليلة عاصفة مطيرة، حدث كل شيء في لحظة واحدة، اختطفه الضوء في شيء يشبه الموجات المتلاحقة؛ لتخرجه من شرفته في الظلام الحالك إلى السماء.

هل قتلت؟ هل توفاني الله وهذا هو الموت؟

صمت لسانه عن أي تعبير لفظي، وفشل حتى في التعبير عن رعبه الداخلي، فظلّ صامتًا يتابع أحداث قدره، كان يرتفع في استسلام، كأن مركبة فضائية قد خطفته أو كأن عنكبوتًا عملاقة قد نثرت خيوطها ودست سمّها بداخل جسده، فأمسى غير قادر على إعطاء أي أمر لأعضائه وأطرافه، فقد الإحساس بالمقاومة كمن نوّم مغناطيسيًّا فأصبح في طوع الضوء، إحساس غريب حقًّا، والغريب أكثر أنه ما من أحد قد رأى هذا الضوء؛ بل ما من أحد كان يعبر وقتها، جسده توقف عن الشعور بالبرد أو الحر أو أي شيء، كان كالميت إكلينيكيًّا، تذكر بين لهفته واستسلامه أنه يرتدي ملابسه الداخلية فقط، ولكن ما كان يتعرّض له وقتها أنساه تفصيلة تافهة كهذه، لم يكن يفكر في كُنه هذا الشعاع المضيء، إنما جلّ تفكيره في ماذا ستفعل أمه إذا غاب عنها في هذا الوقت المتأخر؟ ماذا إذا دخلت غرفته فجأة ولم تجده؟ وإلى أين هو ذاهب وهو مشلول الحركة بفعل هذا الضوء الفضائي؟

ظلام.. ضوء.. موجة.. ارتطام.

***

اصطدم بالأرض في عنف جعل عقله يترنح، هي ليست صدمة كالسقوط من علٍ، إنما هو الوجود ذاته، الخلق ذاته، هو لا يفهم شيئًا، وتفكيره نفسه قد شلّ عن الحركة، وقلبه كان يتخبط داخل عظام صدره.

- أين أنا؟

وجد نفسه في مكان يشبه الغابة المتشعبة، أشجار كثيفة وعملاقة، نباتات لم يرَها في حياته لا في الكتب العلمية، ولا في الواقع، ولا حتى في مجلات ميكي وسمير، تكاد الورقة المتدلية من شجرة ما تسقط عليه، حجم الورقة ليس كالمعتاد، كانت تقارب حجم قارب صغير للصيد، ورقة غريبة فعلاً، والأكثر إدهاشًا أن الشجر من حوله مليء بملايين منها، أصوات غريبة يسمعها، نبرات جديدة على أذنيه، لا يستطيع عقله ترجمتها أو تقريبها إلى صوت مألوف، هو صوت ليس أرضيًّا أبدًا، الصوت كان يصرخ.

خطر بباله أن يتفحص المكان؛ لعلّه يجد مخرجًا ما، سار في طرق متعرجة بين الأشجار وهو يداري ما يظهر من سوءاته نحو الساعة، صرخ بعلو صوته:

- ألا يوجد أحد هنا!!!!؟

أكثر من مرة بلا أي إجابة، شعر بالإنهاك، وقرر أن يستريح قليلاً بجانب شجرة عملاقة غريبة الشكل، وراح في النوم.

استيقظ على هزات ترتج لها الأرض تحت قدميه ببطء، كانت تقترب حتى أصبحت مثل خبطات مدوية، وقعها بطيء يوحي بأنه داخل فيلم من أفلام هوليوود التي عالجت الحياة ما قبل البشرية، ظن في بادئ الأمر أنه زلزال، وأنه ما زال بحجرته، ولكن الصوت يقترب منه، نظر إلى الشجرة التي كان يستند عليها، فلمح طيورًا غريبة الشكل، كبيرة الحجم، تترك الشجرة بشكل عشوائي كأنها تهرب من شيء ما -هي

ليست طيورًا بالمعنى الحرفي فهي تشبه التماسيح الكبيرة، ولكن بأجنحة، وصوتها يشبه فحيح الأفاعي- شعر برعب لا مثيل له، اشتاق إلى رشفة شاي ساخن تهدئه، على الرغم من صعوبة الموقف، تناسى جروحه وتمتم:

يا الله.

أسرعت الخطوات بالاقتراب، وجد أنه كائن أخضر عملاق في طول ناطحة سحاب، ظهر أمامه بشكل درامي يليق بأفلام هوليوود، ظلّه فقط كاد يغيم الغابة بأسرها، جسده مغطى بحراشيف مثلثة كالسكاكين، كان يصرخ في وجهه بصوت لا يمت للعالم البشري بصلة، ظل «يحيى» صامتًا لبضع ثوانٍ قبل أن يستوعب عقله ما يواجهه في الظلام الذي خيَّم عليه، نعم إنه ديناصور، ديناصور كالذي كان يراه في الأفلام، ولكنه عملاق جدًّا.

تسمَّر في مكانه للحظة، اقترب الديناصور بأنفه العملاق يتشمم «يحيى»، يبدو من تعبيرات وجهه أنه لم يرَ بشرًا من قبل، ظل «يحيى» في مكانه يحاول ألا يقوم بحركة مفاجئة حتى لا يستفزه، أدار الديناصور وجهه بلا مبالاة كالذي فقد الأمل في وجبة ساخنة وهمَّ بالرحيل، ترك «يحيى» غارقًا في عرقه، تنفّس بعمق، تشمم الهواء بارتياح، سحب نفسًا عميقًا، ولكن يبدو أنه كان باردًا قليلاً، عطس «يحيى» بقوة، أدار الديناصور وجهه الذي تغير ليصبح مشعًّا بالغضب، وصرخ بكل ما أوتي من قوة، أطلق «يحيى» صرخة مدوية، وأطلق ساقَيه للريح هربًا من هذا الخطر المحدق، تبعه الديناصور يحطم كل ما يقابله من صخور

وشجر، وحتى كائنات حية، ظل «يحيى» يجري محاولاً الفرار في طرق متعرجة، وقلبه الواهن يخونه، ولكن القدر لا يمهل لحظة، تعثر ووقع على الأرض مهشمًا عظمتين أو شيئًا من هذا القبيل، نظر «يحيى» خلفه متمنيًا أن يفيق من هذا الحلم الذي طال، ولكن الديناصور أخرج لسانه الذي كان بطول قطار والتقمه بسرعة غير عادية، وكانت آخر كلمة على لسان «يحيى» وهو يدهس بين أسنانه العملاقة:

- يا ربي، أين أنا؟

شعاع يظهر، يسحبه من مكانه المظلم، يسير بسرعة في حركة تشبه الدوامة، ارتطام بالأرض.

ما زال «يحيى» بملابسه الداخلية، ولكن المكان اختلف، الآن هو في مكان يشبه الغابة العادية كالتي تقبع في أواسط أفريقيا، حيوانات يألفها، أصوات طيور وحيوانات مفترسة تجوب المكان، أسود أو نمور لا يهم، المهم أنه يعرفها، ويقدر خطورتها، ولكن ما رآه جعل شيئًا من الألفة يتكون بداخله، خطر يعرفه أهون بكثير جدًّا من خطر لا يعرفه ويفوقه حجمًا وقوة، يترنح ولا يفهم ما حلَّ به، هل هي لعبة؟ يشعر بغثيان غريب، ويترنح كالسكير الذي يجوب الشوارع بحثًا عن كأس، قطع حبل أفكاره شخص ذو ظهر منحنٍ ولا يرتدي ملابس، ظهر من الخلف، التفت فرآه، كان ذا شعر كثيف في جميع أنحاء وجهه وجسده، يقبض بقوة على جزع شجرة غليظ، وكان لسانه يتدلى في شيء يشبه العته المغولي، وكان ينظر له في ثبات.

ذو العمامة الزرقاء

في فصل الشتاء؛ حيث البرد الذي يخترق العظام فيصيب الإنسان بالقشعريرة، وعلى الرغم من تساقط قطرات قليلة من الأمطار فإن الجو العام كان هادئًا لدرجة تنذر بوقوع كارثة ما، كانت المشاعل تحاول إنارة الشوارع في جو قاتم يوحي بعصر ما قبل الكهرباء، هي مدينة تتكون من المنازل الخشبية المقفلة التي تتناثر على جانبي الطريق، يتوسطها معبد ضخم الهيئة مكتوب عليه بحروف سيريانية «هيكل سليمان»، نعم أنها القدس، هناك حركة غير عادية تحدث بداخل الهيكل، الحاخامات والكهنة يأتون ويذهبون في توتر، أصوات همهمة تنم عن قلق يغمر الجميع، هناك بعض الحاخامات شيب الشعر واللحية يمتازون بهيبة واحترام بين أفراد الهيكل، كانوا يتحدثون عن شيء ما.

صاح أحدهم:

- علينا أن نتكلم مع عظيمنا جناب الحاخام الأكبر.

فقال الآخر:

- ولكنها ستكون صدمة عليه، خاصة أن صحته لا تسمح بأي مفاجآت.

رد الأول:

- وكيف سنتصرف وحدنا؟

ساد الصمت لبرهة حتى تقدم الحاخامات من الردهة باتجاه غرفة ذهبية خُطَّ على قائمتها بالآرامية «الحاخام كريستيوس».

طرق أحد الحراس، وقال:

- «سيدي الحاخام كريوس، وسيدي الحاخام خامليوس، يريدون مقابلة روحك المخلصة».

جاء الصوت الهزيل يقول له:

- أدخلهم يا عنقوان.

جاء صوت الحاخامات من الخارج بكل تبجيل وقلق يستأذنون بالدخول، فجاء الصوت بإيماءة تنم عن الموافقة.

بعد دقائق من الصمت، قال كريوس:

- أبي ومخلصي لديَّ من الأخبار ما لن يكون عليك بالسعيد.

كريستيوس:

- تكلم يا بني بكل صراحة، فنحن في بيت الرب، والأمان معك.

كريوس:

- سيدي، لقد حان الوقت لبداية ظهوره، فالعلامات لا تخدع أحدًا.

كريستيوس:

- ولكن كلنا نعلم أن المسيح لن يظهر إلا بعد ١٠٠ عام شمسية، ونجمه

لم يبزغ بعد، حتى إن الأم لم تفقد وليدها بعد.

كريوس:

- أبي، أنا لا أتحدث عن المسيح، إنني أتحدث عن «محمد».

كريستيوس:

- محمد ابن إسماعيل؟

كريوس:

- لا أبي.

فبرقت أعين الحاخامات، وصاح كريستيوس بصوت هزيل: فليرحمنا الرب، بحق رحمته علينا من الفرعون.

مرت لحظات متشعبة بالتوتر قطعتها أصوات انفجارات هائلة وخيول، وأحدهم صاح عاليًا: «قد وصل نبوخذ نصر، اهربوا فسيهدم الهيكل».

قال كريستيوس: «أسرع يا كريوس، خذ معك ألواح النبوءة واهرب عبر النفق، مهمتك أن تكون المسئول عن تحذيرهم».

قال كريوس:

- ولكن يا أبي كيف سـ؟

قاطعه قائلاً:

- لا يوجد وقت، مصير أحفادنا في أيدينا، اهرب واحتمِ في الجبال، وكن أمينًا في حفظ النبوءة، فظهور «محمد» الثاني سيكتب على

أحفادنا الفناء، مهمتك هي جمع جنود الرب، والاستعداد للحرب.

صاح كريوس:

- وكيف سنعبر إلى «محمد»؟ فهو يبعد عنا آلاف الأعوام.

قال كريستيوس:

- هناك فجوة ما اكتشفها جنودنا المخلصون بأمر الرب والنبي «يشوع»، اهرب وستقودك فرقنا إلى هناك.

أشار له كريستيوس، فهرول كريوس ومعه «الحاخام» الآخر عبر نفق في حجرة الحاخام الأكبر، عندها أغمض كريستيوس عينيه في رضا مع سقوط أول أحجار الهيكل في انتظار مصيره بالقتل، كان الليل يخيم على المدينة، وكان الحر قيظًا على الرغم من هطول الأمطار، هي ليست حرارة الشمس، إنما حرارة المشاعل الموقدة تنم بالغضب، صيحات متضاربة تقول: «اقتلوا الساحرة»، وصيحات أخرى تقول: «لقد لعنتنا كلنا فلنقتلها».

العصر هو من عصور الظلام الوسطى في أوروبا، ما قبل الحروب الصليبية، في عهد الجهل والحكم الكنسي البابوي، بالتحديد في حكم الأنبا «متّى»، قبل هذا بثلاثة أعوام أصدر البابا الحاكم قرارًا بتجريم كل من يتعامل بالسحر، وكل من تطاله شبهة التعامل بالسحر يحرق فورًا.

فما كان من أهل المدينة إلا تنفيذ قرار الكنيسة، كل من تطاله شبهة التعامل بالسحر يحرق فورًا، أو يلقى من فوق الجبل، أو كما تقرر اللجنة،

وبالفعل حرق على أثر هذه القرارات ما يقارب المليون امرأة مظلومة، كل من يعارض الأفكار السائدة يسمّى الزنديق أو الساحر، ويحكم عليه بالقتل؛ لكن المشهد هنا بالكاد يختلف عن الشبهات البريئة، كانت شابة تعيش في غابات سويسرا منذ ما يقارب الخمسين عامًا، ولكنها كانت لا تكبر، لها نفس الشكل، إلا من خصلات بيضاء على مقدمة رأسها، بدأ الأمر بفلاح أغواها فرفضت، فحاول التهجم عليها فقاومته وشجّت رأسه، فاتهمها أمام لجنة التفتيش بأنها ساحرة، وبالفعل تم إلقاء القبض عليها، وصدر الحكم بالحرق، فإن لم تحرق فهي ساحرة، كانت ملامح وجهها هادئة، لا يوجد رعب على قسمات وجهها الجميل، حتى أضرمت النيران في الأخشاب والأعواد تحتها، وهي مقيدة بالحبال وسط هياج السكان، فجأة، تحولت ملامحها إلى سيدة عجوز، وخرج من مقدمة رأسها ما يشبه القرون، هل كان ما رآه الناس وقتها حقيقيًّا أم هو خيال مريض؟ ضحكت ضحكة أدخلت الرعب في نفوس كل من شاهد، حتى إن بعض الشباب قد شيبت شعيراته، قالت بصوت أجش: «أتحرقوني لأني لم أسلم جسدي إلى فلاح فانٍ؟ الويل له ولكم»، وخرجت شرارة عظيمة من عينيها؛ لتصيب الفلاح، فيتحول إلى كائن مشعر له ذيل، أكملت قائلة: «لا تقلقوا، سأعود لأنتقم عندما يظهر (ذو العمامة الزرقاء) في بلاد العرب، عندها ستنتهي أوروبا كلها، وستفتحون أبواب الجحيم، هاهاهاها»، قالتها بحشرجة؛ لأن النيران كانت قد التهمت أحبالها الصوتية بالفعل، ظل السكان صامتين في حالة تسمر من الرعب والدهشة، حتى هجمت عليهم أمطار بلون

الدماء كانت كفيلة بانتهاء المشهد المأساوي؛ لتظل هذه الصورة محفورة في قلب السكان جميعهم، لن نذكر بالطبع أن هذه القرية قد أُبيدت بالكامل في انفجار سماوي غريب أطاح بالكل بعد شهرين ونيف من حرق الساحرة.

***

كان الجو قاتمًا، فصحراء القاهرة على الرغم من هدوئها فإنها بالفعل مرعبة، خاصة الذئاب الجائعة التي تبحث دائمًا عن فريسة ما، ولكن كيف لخليفة المسلمين كلهم أن يخاف؟ خاصة أنه مؤمن بالله، ومقامه يقترب من مقام أنبيائه الصالحين، كان «الحاكم بأمر الله» الفاطمي من سلالة فاطمة الزهراء -رضي الله عنها- يتجول كعادته ليلاً في منطقة جبل المقطم بالقرب من قصره؛ ليناجي ربه ويتأمل في خلقه ونجومه، ويتعبد ويصلي حتى يغلبه النوم، فيعود في الصباح، كان حاكمًا عادلاً، يخاف الله ويعدل في ميزانه، ولا يظلم أحدًا، ولكن نسجت حوله الأساطير من أعدائه، وتهافت الدول الإسلامية السنة منها والشيعة وانتشار المؤرخين أصحاب المصالح المشتركة بأنه كان مجنونًا فقط؛ لأنه رفض التوريث في الحكم، ولأنه كان من آل البيت، كان قلبه قويًّا عامرًا بالإيمان، كان محبوبًا من الجميع، حتى إن أهل مصر كانوا يتبركون به، كان كريمًا محبًّا للعدل، في هذه الليلة بالذات كان متوترًا قليلاً، وإن أخفى عن رجاله وحاشيته هذا، فامرأته التي يتزوجها في الخفاء قد وضعت مولودًا اليوم.

صوت من الخلف:

- مبارك عليك يا سيدي الحاكم، كانت ولادة عسرة، ولكننا أنقذناه وأنقذناها أيضًا، لقد وضعت ولدًا، سيدي الحاكم الجد.

قاطعه الحاكم بأمر الله بإشارة منه؛ لكي يخفض صوته قليلاً، وأردف قائلاً:

- أيها الطبيب، لا أريد أن يعلم أحد بهذا، هذا أمر من الحاكم يا طبيب.

لم يستطِع الطبيب أن يعلّق على أوامر الحاكم، لا يقدر حتى على الاستفسار، وإن راودته الشكوك، لماذا يريد أن يخفي هذا؟

تركه «الحاكم» يصاحبه كاتم سرّه «المتوكل على الله»، واتجه ناحية الغرفة التي تقطن بها امرأته.

نظرة على حالها، وقد أنهكها التعب، وآثار الإنجاب قد ظهرت على وجهها وجسدها الواهن.

عندما رأته يقترب منها قالت في وهن واضح:

- واحبيباه، لقد انجبت لك الوليد الذي يتمناه أي حاكم في العالم، لماذا لا ترفرف من الفرحة كما يفعل الكل؟

صمت لبرهة، ثم قال وهو يزفر الهواء في ثقل:

- في ظروف أخرى يا حبيبتي لكنت أقيم المراسم والذبائح من بحر الفرنجة إلى مصب النيل، ولكن لا أقدر.

قالت:

- ولماذا يا حبيباه، أتشك في نسبه إليك؟

قال مسرعًا:

- معاذ الله، يا أشرف من رأيت، ولكن لا أريد أن يكون لي وريث، أريده حكمًا بالخلافة وليس بالقرابة، كما أن..

ثم كتم أنفاسه وأكمل:

- كما حذرني المنجمون من هذا الطفل.

نظرت له نظرة واهية، ثم قالت:

- كذب المنجمون ولو صدقوا يا حبيباه، أتصدق هذه الترهات وأنت خليفة المسلمين؟ لو صدقت جدتك فاطمة بنت «محمد» المنجمين لما خرجت من المدينة إلى كربلاء، ولما قامت الدولة، استعذ بالله.

قال:

- أعوذ بالله من الهم والتفكير، مبروك يا حبيبتي.

قبَّلها وقبَّل الوليد، ثم نظر له:

«جئت إلى الدنيا بصعوبة، وحييت بعد موت متوقع، أنت هو يحيى».

كل هذا جال بباله وهو يسير في صحراء المقطم، وأمور الدولة ومولوده تشغل ثنيات تفكيره، حتى رأى شيئًا غريبًا، ما هذا الضوء المقبل من أحد كهوف المقطم؟

هل هناك من يسكن بالجبل؟ وكيف لا يعلم به وهو من لا تمر صغيرة أو

كبيرة من تحت يده؟

اقترب صوب الكهف المزعوم حتى رأى دائرة الضوء تكبر؛ لتشكل شيئًا يشبه الباب، فتح ليخرج منه أربعة أشخاص بملابس غريبة، كان يراقب هذا المشهد في صمت وتماسك شديدين، قالت إحدى السيدات التي كانت من ضمن الأربعة وهي تشير باتجاهه:

ها هو الخليفة في ميعاده بالضبط.

اقترب منه رجل، أخرج الخليفة خنجرًا؛ ليدافع عن نفسه، فقال الرجل بصوت خفيض:

- عذرًا يا جلالة الخليفة، ولكنك ستأتي معنا إلى ما شاء الرب أو يخرج هو «وأخرج من طيات ملابسه شيئًا أسود ووجهه صوب الخليفة فقط ليصعق الأخير ويفقد الوعي، حملوه باتجاه الضوء ثم اختفوا».

***

العام هو ١٩٩٣

كان «محمد» طفلاً صغيرًا عمره لا يتعدى سبع سنوات، والده هو طبيب بأحد المستشفيات الحكومية ووالدته ربة منزل.

كان «محمد» طفلاً غريبًا، لا يستمتع بألعاب الأطفال، وعلى الرغم من صغر سنه كان جل استمتاعه بالقراءة، وكان والده يرى أن هذا من علامات العبقرية، فلم يبخل عليه بالكتب، وساعده في هذا أيضًا جارهم الأستاذ «جمال حمدان»، عالم الجغرافيا الشهير وقتها، كان

يجلس ليتسامر معه ويحكي له عن اليهود المغتصبين، وعن مؤلفاته التي تكشف للعالم أنهم مجرد لصوص، ومن بينها حديثه عن خرائط ومخطوطات وجدها في رحلة بحث للقدس وجدها تحت الأقصى، لكم يتمنى اليهود الحصول على هذه المؤلفات بأي ثمن، ولكن إن حصلوا عليها فرغوا من أمر القضية الفلسطينية.

كان «محمد» يقرأ كعادته ليلاً، في شقته الملاصقة لشقة جمال حمدان في عمارة سكنية مهجورة إلا من شقتهم وشقة فوقهم استأجرها بعض الأجانب منذ شهرين، كانوا رجلين وسيدتين، في هذا اليوم سمع خربشة وأصوات طَرق على باب جارهم جمال، فخرج ببراءة الأطفال ليرى ماذا هناك، فوجد باب جارهم مفتوحًا على مصراعيه، تقدم ليبحث عن جارهم، فهذه أول مرة ينسى فيها عمو جمال الباب مفتوح، سمع «محمد» صوتًا مقبلاً من المطبخ، فاتجه ليرى، فإذا بها السيدة جارتهم تعبث في أنبوبة الغاز، فصاح «محمد»:

ماذا تفعلين؟

التفتت في رعب تنظر له، لحظة من الصمت حتى قالت: «إنه هو»، ومن دون أي مقدمات هجمت عليه قائلة:

- «إنها فرصتي لأقضي عليك».

فضربته على رأسه ضربة موجعة، وتركته ينزف دمًا، وأشعلت النيران في الأنبوبة، وهرولت إلى الصالة، كان آخر صوت يسمعه «محمد» قبل أن يغشى عليه هو: «عنقوان، هل أخذت كل الخرائط؟».

القتيل

(وَلَو كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوء) الأعراف: ١٨٨

أيقن «يحيى» لوهلة أن ما ينظر له بثبات هو نوع من أنواع القرود متطور بشكل غريب، يكاد يكون أكبر قرد رآه في حياته، فهو يفوقه في الطول والعرض، حتى عرض الصدر يكبره بثلاث مرات عن المعدل الطبيعي، على الرغم من الرعب والواقعية التي كان يشعر بها في كل نفس يزفره، ولكن خطر على باله هاجس بأن كل هذا مجرد حلم، وسيستفيق في أي لحظة الآن.

نعم، ربما هذا هو أطول حلم قد رآه في حياته، فقد قرأ من قبل أن بعض الأحلام التي تصيب من لديهم أمراض نفسية مستأثرة تتشابه في الواقع بألوانه وقواعده الحسية، قد يكون شايًا مغشوشًا احتساه، قد تكون بعض التخيلات، أو أحد ما قد وضع له قرص هلوسة في كوبه.

لكنه بداخله على يقين بأنها حقيقة ملموسة، هو لم يصل إلى هذه الدرجة من فقدان الإدراك بالحقيقة والخيال، بالفعل لا يوجد مجنون

يعرف أنه قد جنّ بالفعل، ولكن هو فقط يحاول أن يصل إلى تبرير إلى هذا الجنون، قطع تفكيره اقتراب هذا الإنسان الغريب منه ببطء، كان يتشممه كالكلب بحثًا عن عظمة ما؛ لتكون هي غذاءه، رفع يده المشعرة الغليظة على شعيراته الخشنة المتشعبة يتلمّسه، نظرته البلهاء التي تذكره بالمغيبين نتيجة مادة الترامادول المسيطرة على دماء المدمن جعلت الرعب يدق في قلبه ثانية، حاول «يحيى» الابتعاد ببطء شديد، ولكن الكائن أمسكه من ساعده بقوة جعلت «يحيى» يصرخ من الألم، قام بدفع هذا الكائن بحركة غريزية، وقال بصوت جهوري:

ماذا تريد؟

لحظة من الصمت طالت، ثم فجأة، صرخ الكائن بصوت مرعب لا يمكن أن يكون قد خرج من حنجرة إنسان من قبل، وكشر عن أنيابه الحادة في وضع افتراس، وهجم بجزع الشجرة على رأس «يحيى» بضربة قاتلة، اقتراب العصا من وجهه أحس به «يحيى» كالتصوير البطيء جعل الأفكار تتطاير عن عقله سريعًا ثم اختفت، وأظلمت الدنيا فجأة.

صمت.. ضوء.. دوامة.. ارتطام.

***

هذه المرة أفاق «يحيى» في صحراء، وصوت يتردد في ذهنه يكاد يسمعه بداخل عقله فقط، بعربية واضحة:

«يجب أن تُقتل، كل قتلة تعبر بك الزمن، إذا أردت الرجوع يجب أن

للمزيد من الحصريات موقع sa7eralkutub.com
جروب الفيس بوك fb/groups/Sa7er.Elkotob/

تُقتل».

حاول استيعاب المكان حوله، واستيعاب الصوت الذي كان يخاطبه في عقله، هو صوت ألفه كثيرًا، ولكن لا يتذكر أين سمعه من قبل، كان المكان هذه المرة مكانًا يشبه الواحة، واحة واسعة صامتة لا يسمع منها إلا بعض الأصوات المترامية لآدميين مقبلة مع الريح، صحيح أن اللغة كانت مختلفة، ولا يفهمها، إن كان ما يسمعه هذا لغة أصلاً وليست هلاوس سمعية، ولكن صوتًا بشريًّا واحدًا كفيل بأن يطمئن قلبه للحظات، سار في هذه الواحة يحاول استيعاد الصوت الذي تردد في ذهنه عندما أفاق، هل كل هذا حقيقيًّا؟ وإذا كان الهاجس الذي سمعه حقيقيًّا فعلاً فلماذا يجب أن يقتل؟ لماذا هو بالذات؟ وأين هو الآن؟ وما قصة الزمن العجيب هذا؟ سار في خطاه كثيرًا حتى تشققت قدماه، بلا أي أمل في النجاة أو العثور على من يفهم منه هذه الانتقالات العجيبة، كان قد تناسى أنه يعبر بلا أي جروح وبملابسه الداخلية التي لا تتسخ أبدًا، حتى لمح جبلاً أزرق من بعيد، وأصوات تعلو وتقترب بشيء يشبه الصراخ المرعب، هناك أناس يواجهون الرعب ذاته، هو لا يخطئ في سماع صراخ الموت، فهو قد قتل مرتين من قبل، فجأة، أظلم المكان من حوله، وتكاثرت السحب فوقه، المرة الأولى التي يرى فيها سحبًا تتشكل بهذه السرعة، إلا في برنامج «العلم والإيمان» عندما كان يرى الكاميرا تسرع في العرض، فيرى تكوُّن السحب في دقيقة، كل ما يراه أبعد ما يكون عن الواقع، لمح الجبل الأزرق العجيب يتحرك نحوه في حركة تشبه الموجة البحرية، القمة تقترب أسرع من القاعدة، هناك

خطأ ما هنا، كان قد رأى تسونامي في إحدى القنوات الفضائية، فتيقن المشهد، هو شيء يشبه تسونامي، ولكن ارتفاعه أكبر من أكبر مبنى رآه من قبل، أمواج تصل إلى السماء؛ لتلمس السحب نفسها، صراخ يشبه صراخ الموتى المعذبين، كشياطين سقر تنبح في جنون، إنه الهول بذاته، ما هذا الذي يمرّ به؟ لماذا هو بالذات؟ كان «يحيى» يحب التاريخ والدين كعادة أي قارئ في العالم، تذكر قصة جالت على ذاكرته من داخل مجموعات القصص والروايات التي قرأها في حياته، شيء يشبه هذا حدث مع جلجامش من قبل، عندما لمحت عيناه سفينة ضخمة، تعتلي هذه الموجة المهولة، وعندما رأى أناسًا يموتون من هول المفاجأة قبل الغرق، حاول التحرك والهرب، ولكن شُلَّ تفكيره، وثبت لسانه على جملة واحدة: «يا رب أنا مسلم يا الله».

وكان آخر ما سمعه قبل ارتطامه بالموجة جملة: «شكور كانوباهور أي نوح».

ذو العمامة الزرقاء

كانت ليلة عاصفة، مقبضة إلى حد الجنون، لا تخلو من البرد القارس والأمطار التي كانت تنهمر بشكل يثير الرعب، حتى الحيوانات والكلاب الضالة قد اتخذت مخابئ بفطرتها تجنبًا للعاصفة القوية التي تكاد تنزع البيوت من ثوابتها، كانت السوق التي تتوسط «باريس» قد أغلقت في ساعة متقدمة من النهار لهجوم العاصفة، فإذا كنت قد أطللت أنت منذ ساعتين لرأيت الفتيات الصغيرات بيض الوجوه اللاتي يبعن الزهور والخبز قد هرولن بحثًا عن أي مخبأ يقيهن شر العاصفة، ولرأيت رجالاً بكاسكيت يتشبثون بها ويتخبطون حتى يصلوا إلى مخابئهم ومآويهم، ولرأيت شخصًا واحدًا فقط هو من يبدو عليه الهدوء، يسير بروية وسط الهرج والمرج، وكأنه يوم مشمس من أيام الربيع الفرنسي.

ناداه أحد الأشخاص وهو يتشبّث بغطاء رأسه من وقع العاصفة قائلاً: «سيدي دانيال، إلى أين أنت ذاهب في هذه العاصفة؟».

رد دانيال:

- بالطبع ذاهب إلى سيدي نوسترادامو‌س يا فتى، أتريد شيئًا؟

رد الفتى:

- الثم يده لي فإنني أريد عطفه ومحبته عليَّ سيدي..

العام ١٥٣٣، يجلس رجل شابت لحيته، وانثنى ظهره من النقرس، يحملق في كوب ماء، وكأنه يستطلع أخبار المستقبل بعينيه الواهنتين، يستند إلى عصا، ويسند ظهره المنحني إلى الحائط الخشبي من كوخه المتواضع، بهدوء جلس دانيال تلميذه، وهو يوقر سيده بنظراته في صمت، نعم، إن نوسترادامو‌س هو أشهر طبيب وعراف عرفته أوروبا في ذلك الحين، تنبأ بالكثير في كتابه «قرون»، وحدثت بالفعل أكثر تنبؤاته، لربما في المستقبل البعيد تتحقق باقي التنبؤات، تُرى هل تتحقق نبوءة زائري السماء؟ لا أعتقد هذا.

مر نصف ساعة خجل فيه دانيال من مقاطعة سيده، حتى نطق العراف بصوت واهن قائلاً: هل تعلم لماذا استدعيتك يا بني؟

رد دانيال:

- كيف لي أن أعلم وأنت العالم بالغيب سيدي؟!

فلتت ابتسامة من فم الطبيب على الرغم من مرضه، ثم تذكر، واعتدل من دون أن يبعد نظره عن كوب الماء، وأردف:

- لديَّ سر أريد أن أأتمنك عليه، هل فيك من يكتمه ويتحمل مسئوليته؟!

رد دانيال:

- خادمك المطيع معلمي.

قال نوستراداموس:

- أنا سأموت غدًا.

قال دانيال:

- ماذا تقول يا سيدي؟!

قال نوستراداموس:

- نعم يا دانيال، سأموت غدًا، ولكن ليس هذا هو السر، فالموت هو كأس سيذوقها كل البشر، ما لدي هو الهول الأعظم يا بني، نبوءة سأذكرها في كتابي، ولكن أنت الوحيد من سيعلم وقتها وصاحبها، إنها مسئولية كبيرة يا بني، وقد اخترتك أنت بالذات لما توسمته فيك من أمانة، وسعل بقوة، ثم استطرد: «صدق».

دانيال: استرح يا أبي ولا تقلق.

نوستراداموس:

- سأقول لك النبوءة كما أراها، ثم سأشرحها لك فيما بعد.

قال نوستراداموس:

- من الأرض العربية العظيمة سوف يلد سيد عظيم من شريعة محمد هذا الملك، سوف يدخل أوروبا لابسًا عمامة زرقاء، إنه الذي سوف يبعث الأمة العظيمة من الموت؛ لتعيش مرة أخرى، سوف يكون هو الرعب لكل الناس، لم يكن أحد أكثر منه رعبًا.

فأومأ دانيال برأسه مفكرًا، فرد نوسترادامـوس سريعًا: «هذا الرجل سيقضي على أوروبا يا بني، وقد حانت النهاية».

صمت دانيال، ثم قال:

- وكيف سيدمرها يا سيدي؟ وهل سيتصدى له أحد؟

قال نوستردامـوس فى وهن:

- جيوش الرب هي الأمل الوحيد.

فشرد دانيال وهو يتلقى الأحمال فوق رأسه، وفكر قائلاً: «ليت العاصفة دمرتني قبل وصولي».

«ننشر لكم وقائع قصف بغداد، وها هي ذا الطائرات الأمريكية تحلق فوق مدينة آل البيت».

***

العام ٢٠٠٣

«محمد» يستذكر دروسه استعدادًا لامتحانات آخر العام، يجلس في حجرته يحاول أن يتناسى صوت الأخبـار، وصوت أمـه التي تبسمل وتحوقل وتدعو على أمريكا، «محمد» كان يهتم بالسياسة؛ لأن عقله قد سبق سن ذويه، ولكن الاستذكار أهم الآن، أعاد فتح كتاب الرياضيات ودنا إلى مسألة صعبة، حك رأسه مفكرًا حتى لامس الندبة البشعة التي أحاطت رأسه من الخلف إلى الأمام، فتذكر ما حدث له في السابعة، كل ما يتذكره أنه استيقظ في المشفى والكل يحضنه ويقبله، ومنهم

من تطلق الزغاريد، وسمع من يقول: «ولماذا يحاولون قتله؟ هو مجرد طفل».

فيرد آخر: حتى لا يكون هناك شهود، الله يخرب بيت إسرائيل ع الموساد.

فسأل أمه: عمو جمال فين؟

أمه: عمو جمال عند ربنا يا «محمد»، ادعيله.

تماسك الطفل الصغير الذي أنقذ بمحض الصدفة حين استيقظ والده الطبيب يريد الارتواء فاشتم رائحة الدخان، فاقتحم الشقة، فإذا بجمال حمدان محترق تمامًا و«محمد» تلاحقه النيران.

كاد يختنق، لكن لماذا حاولت تلك المرأة قتله؟ وما معنى كلماتها؟ كان صوت التلفاز بالفعل قد ارتفع بدرجة عالية، فقرر «محمد» أن ينزل؛ ليتجرع المياه الغازية حتى تنتهي الأخبار، أخذ مفاتيحه وبعض النقود وارتدى حذاءه وخرج، عند كشك عم «مصطفى» استند «محمد» على الجدار المقابل، وأشعل سيجارة، كان يعاني من حالات خوف من الواقع أصابته بعد الحادثة أثرت على شخصيته، وبالتالي اتجه إلى التدخين كنوع من المواساة أو الإلهاء، قابله صديقه وجاره «محمود»، أو كما يطلق عليه «عبّارة»، نسبة لحادثة قابلتهما وأنقذه «محمود» منها، فقد كان في سن الخامسة عشرة يركب عبَّارة من أمام سكنه الجديد في المنيل بعد انتقاله فور الحريق والعلاج، عبّارة بطيئة يسوقها أحد ما، تقدم أحد الراكبين (له عين ملونة تدل على أصل أوروبي) إلى

«محمد»، وحاول إغراقه بإلقائه في النيل، ضربه محمود على رأسه سريعًا، ولكن الرجل أمسك به وقفز به إلى المياه ليغرقه، ظل محمود يمد له يده، ويصيح: «يا عم عبارّة، الحبل يا عم عبارة»، ومنذ ذلك الحين يطبق عليه عبّارة، قابله بابتسامة بشوشة قائلاً:

«محمد الدحِّيح» لماذا تترك مذاكرتك وتخرج والعراق تُضرَب الآن؟

«محمد»:

لا أستطيع الاستذكار يا عبارة، يرفعون صوت التلفاز بدرجة عالية لا يتحملها لا بشر ولا جان ولا حتى أموات العراق، كما لو كان أبي هو قائد الغزو الأمريكي بنفسه، وأنت يا عبّارة ألا تعمل أبدًا؟

نظرة ارتباك أفلتت من عبّارة عالجها بجرعة من المياه الغازية.

أضاف عبّارة:

ليس معنى أنني أكبر منك يا «محمد» بعشرة أعوام كاملة أنني يجب أن أعمل، لدي ما يكفيني من المال فلماذا أعمل؟! ثم أنت تعرفني منذ أربعة أعوام فقط فلا تتدخل حتى لا ألقي أنا بكَ في النيل كما فشل غيري.

ابتسم الاثنان، وظلا يتسامران وهما ينظران إلى اللاشيء، الشارع جانبي وخالٍ لا يسير به كلب حتى، هو حديث بلا فائدة مجرّد ثرثرة فارغة بين شابين، فجأة، ظهر ظل من بعيد لرجل يسير بروية، يقترب منهما الرجل يتلفت حوله كأنه متحفز أو هارب من شيء يطارده،

اقترب منهما حتى أصبح بينهم أقل من مترين، كان أبيض البشرة، أزرق العينين، ويرتدى رداء الصلاة، وعلى رأسه قبعة غريبة الشكل، نظر له عبَّارة متعجبًا، فصاح:

ماذا تريد؟!

كان الرد أنه أخرج من جيبه مسدسًا كبير الحجم وصفعه به على وجهه حتى أغشي عليه، والدماء تنزف من أنفه، التفت إلى «محمد» بعين نارية موجهًا فوهة المسدس بين عينيه، وصاح كمن لا يهمه أمر أحد:

اليوم ينفذ أمر الرب، لتكن مشيئتك أيها الرب.

وأطلق النار..

القتيل

ليه يا حبيبتي ما بينا دايمًا سفر؟

ده البعد ذنب كبير لا يغتفر

ليه يا حبيبتي ما بينا دايمًا بحور؟

أعدي بحر ألاقي غيره اتحفر

صلاح جاهين

كان المكان صحراء، صراخ الجموع التي كانت تعبر فوقه بهمجية، وأصوات التهليل والدماء على الأرض أوحت له بأنه في ساحة حرب، أو بمعنى آخر أناس يتشاجرون بأسلحة بيضاء، ولكن بأعداد كبيرة، كان قد رأى مشاجرة من شرفته في فترة من فترات حياته، كانت بين مجموعة من الجزارين وبعض البلطجية، كان الجزارون يرفعون الأسلحة البيضاء والفئوس ويهجمون على مجموعة البلطجية وقتها الذين بدورهم كانوا يحملون بعض السنج والسيوف من دون سبب يذكر، تذكر هذا المشهد لبرهة وهو يستعيد وعيه من هول الاصطدام وشهقة الغرق، يحاول أن يسحب نفَسًا وهو متمسك بملابسه الداخلية، ولكن العجيب أنه لا يوجد بلل ولا جرح في مناطق جسمه، استعاد وعيه

على هذه المجموعة عارية الصدغ، مجموعة بأعداد كبيرة يحملون فئوسًا وأسلحة بيضاء ويلوحون بها عاليًا، وجوههم ليست مصرية أبدًا، فهم كالبدو، لهم نفس الشعور الناعمة وبياض الوجنتين، ولكنهم مختلفون قليلاً؛ بل يميلون إلى الشكل الآسيوي، حاول أن يسحب نفسه ببطء على الأرض حتى يبتعد عن مواضع الضرب والقتل، يرى أمامه هذه المجموعة تهجم وتقتل مجاميع متفرقة من البشر عراة الصدور، يرتدون ما يشبه العقال السعودي؛ لكنه مختلف كثيرًا، بحيث يثقلونه بشيء ذهبي يعبر الرأس بشكل دائري، ويمررون جانبًا من العقال وراء آذانهم، ويرتدون رداء قصيرًا يخفون به المنطقة السفلية.

هؤلاء فراعنة، أنا في مصر.

قالها «يحيى» لنفسه همسًا، وهو يلملم أعضاء جسده على الرمال محاولاً الاختباء.

ولكن ما الذي يحدث حوله؟ مَن هؤلاء القوم؟ ولماذا يعبر التاريخ وفي وقت الأحداث الكبرى فقط؟

تذكر «يحيى» الكلمات التي دارت بذهنه عندما أفاق قبل الطوفان.

«يجب أن تقتل، كل موت لك يعبر بك الزمن، إذا أردت الرجوع يجب أن تقتل».

أُقتل؟ هل إن قتلت نفسي أعبر وأستريح؟

قرر «يحيى» بنفس مكسورة أن يقتل نفسه، يجب أن يتحامل حتى يصل

إلى زمنه، الآن ليس وقت الفهم، هو وقت الأفعال، يجب أن يعود إلى زمنه بأسرع وقت، يجب أن يتخلص من هذا الكابوس المرعب.

قاطعه أحد البدو قائلاً: «شين راع بعل صاس؟»، قالها بصوت مزعج.

رد «يحيى»: ماذا؟

شين راع بعل صاااس، صرخ بها البدوي وأشهر في وجهه فأسًا.

«يحيى»: are you speak english؟

التفت البدوي إلى أقوام تشبهه، وصرخ: شور عانه ممفيس جاااااااار.

صوت صراخهم: هكسوووووووس..

رآهم يتجهون نحوه مشهرين فئوسهم.

أيقن «يحيى» أنهم يظنونه جاسوسًا ما أو من الأعداء، فهناك قاعدة تقول: «من لا يفهمني هو إذن عدوي».

كان «يحيى» قد اتخذ قرارًا بقتل نفسه، لا بد أن ينتهي هذا الكابوس، بيد ترتعش خطف «يحيى» الفأس الصغيرة المشحوذة من هذا البدوي وتركه مندهشًا، أخذ نفسًا عميقًا ورفع الفأس.

ونزل بها على يده.

تهاوى العالم من حوله، ويده تسقط، والدماء تنفر منها في لحظة واحدة، ألم وعذاب لا يتحملهما بشر، فكيف يتحمله «يحيى» بجسده الواهن؟ هو الذي لم يمارس مجهودًا في حياته سوى قراءة دروسه

وحفظها؟

أظلمت الدنيا حوله وخف السمع، نزف الكثير من الدم، ولم يعد يرى أحدًا بجانبه.

إنه الموت فقد شعر به مرتين من قبل.

ظلام.. ضوء.. موجة.. ارتطام.

أفاق «يحيى» في صحراء وصياح يشبه ما تركه منذ دقائق معدودة، وأناس وساحة معركة وكل شيء.

سؤال خطر على باله: أين أنا؟ إذا كان هؤلاء هم الهكسوس، هل عبرت الزمن ١٠٠ عام ويتم الآن طردهم من أحمس؟ أين أحمس؟

نظر حوله، وحاول استكشاف الوجوه، وهو ملقى على الأرض، يبحث عن فتى أسمر يمتطي عربة بها عجلات تجرها خيول، فقد انتابه الحماس عندما خطر على باله أنه يعيش التاريخ بنفسه، يرى ما كان يقرأ عنه في التاريخ، وتصوره المعابد واللوحات.

صوت من الخلف: «شين راع بعل صاس؟»، قالها بصوت مزعج.

انتبه «يحيى» بذهول وخوف، وتمنى في قرارة نفسه ألا يكون هو.

التفت «يحيى» وهو يدور ببطء وأعصاب يده ترتج وعيناه مغمضتان، لا يريد أن ينظر على ما قد فهمه، وارتجت له أعصابه، ثم قرر أن يفتح عينيه.

ذو العمامة الزرقاء

«يا لهذه الشمس، عندما نحتاجها في الشتاء تكن في مخبئها كالحرباء».

قالها جون لصديقه وزميل وحدته ماك، نعم إنها هذه الطريقة الأمريكية الموروثة عن أجدادهم التي سرقوها من الأفارقة الذين عاشوا على أرض أمريكا منذ مئات السنين كمنفى أو كمرتزقة، فعند تكوين العصابات وقتها كان من أساليب التخفي وتشتيت قوات الشرطة كانوا يختصرون أساميهم في حرفين أو ثلاثة، ويضيفون عليها الصفة، فتكون الأسماء «جو الماكر أو بير القصير».

لذا فتوقع أن أسماء هؤلاء هي جوناثان وماكجريفت.

من الشمس الحارقة وقطرات العرق والرمال، أظن أنك علمت أن المكان هو صحراء نيفادا، التي اشتهرت بالمنطقة ٥١ والتي نسج حولها الأساطير والحكايات، ترجع شهرتها إلى أنها تمتاز بالغموض، بعد انتشار قصة الفلاح الذي وجد سفينة فضاء ساقطة على أرضه في هذه المنطقة بالذات قبل تحويلها إلى منطقة عسكرية.

نحن الآن في عام ١٩٥٤، خمسة أعوام من العام نفسه الذي سقطت

فيه السفينة في هذه المنطقة، وكان جون وماك طبيبَي تشريح تابعين للجيش الأمريكي.

جاءتهما إخبارية بالحدث، وأن الرئيس الأمريكي روزفيلت قد أوصى بهذين الشخصين بالذات لدراسة الموقف وتحليله.

توجه جون وماك إلى المنطقة ٥١، بعد إبراز تحقيقات الشخصية سمحت لهما الحراسة المشددة بالدخول بعد تفتيش أجبرهما على خلع ملابسهما كلها، دخلا إلى بهو واسع ممتد إلى مئات الأمتار، وعقلاهما يأتيان لهما بالخيالات عن كنه المهمة التي يسعيان لها بالأمر.

كانت هي أول مرة تبرح أقدامهما المكان، فكان الذهول واضحًا على وجهيهما من كثرة تطور الأجهزة والإمكانات، واضح أن أمريكا لم تخرج من الحرب العالمية فارغة الأيدي، فها هي ذي كل أبحاث هتلر النازية وأعمار العلماء التي ضاعت في الحرب أمام أعينهما منفذة بدقة.

حتى مخبأه المتطور وقتها الذي قرآ عنه في كثير من المقالات يشبه إلى حد كبير الملحق العلمي بالمنطقة ٥١.

«يا إلهي ما كل هذا؟» صاح ماك.

فوكزه جون بهدوء حتى لا يصيح كالطفل في متجر الحلوى، من المفترض أنهما مرموقان وتصرفاتهما تحسب عليهما، سارا كثيرًا بالداخل حتى وجدا رجلاً ذا هيبة واضحة والكثير من الأوسمة على صدره أمامهما، نظرات عينيه تبث الخوف في الأعماق، مد جون يده

مصافحًا، فكان القائد عمليًّا، نظر له، وقال بلهجة رسمية من دون أن تتحرك يده للمصافحة: «جورج كارلسون، قائد المنطقة، بالطبع تعلمان لِمَ أنتما هنا؟».

همَّ ماك بالكلام، ولكن وخزة من جون كانت كفيلة بإسكاته، وقال: «العلم عندك يا سيدي».

أدار القائد ظهره وعقد يديه بجدية، وقال: «هو موضوع ليس بالهيّن، فنحن قد نواجه حربًا من نوع جديد، حربًا مع كائنات أخرى».

توتر الطبيبان وظلا صامتين، حتى خرج القائد وأشار لهما باتباعه بإيماءة واحدة من رأسه، فتبعاه في صمت.

سارا في بهو ضيق منير تحيطه الأبواب من كل ناحية، كانت بداخلهما الكثير من الأسئلة، ولكن التزما الصمت، كانا أمام غرفة كغرف العمليات في المشفى، ولكن تختلف، فهي مبطنة ومحصنة بالصفيح، لا توجد بها شرفة ولا فتحات تهوية، إنما تعتمد على مكيفات الجو، تملؤها الكاميرات الصغيرة التي لم يعرفها العالم رسميًّا إلا في سبعينات القرن الماضي، فلكَ أن تتخيل التطور والاندهاش الذي أصاب الطبيبين.

كان يتوسط الحجرة فرَّاش صغير، وكان هذا الفراش هو محور الرؤية في الغرفة، الإضاءة مركزة عليها بشكل مبالغ فيه.

قال القائد: «اقتربا وانظرا».

اقترب جون ووراءه ماك إلى الحشية بخطوات متوترة، كان هناك

شيء يغطيه فرش في حجم الطفل ذي العشرة أعوام، طوله نحو متر وعشرين سم.

اقترب ماك من الغطاء وأزاحه في حركة درامية، فشهق جون وماك من هول النظر الذي أخذ عقولهما في ترجمته نحو ٥ دقائق.

استرجع جون نفسه، وقال: «إذن الحكومة تريد منا أن نشرحه؟!».

قال القائد: «لا، بل تريد منكما معرفة ما هذا».

أكمل القائد: وجده فلاح مع ٣ آخرين مثله في حطام ما يشبه الطبق الطائر، أبلغ السلطات على وجه السرعة، وتم إنشاء هذه المنطقة.

ابتلع الدكتور جون ريقه بصعوبة، وأومأ برأسه بنظرة مفهومة إلى القائد الذي فهم سريعًا وغادر الغرفة.

أمسك ماك المشرط، وأمسك جون مشرطًا ومقصًّا طويلاً، وقال: «بماذا سنبدأ؟».

أجابه: أريد أن أبدأ برأسه العملاق..

صوت طرقعة تشبه تحريك المفاصل مقبل من الفراش، نظرة مرعبة إلى الفراش.

لقد فتح الكائن عينيه!!

نظر لهما، وسعل كمن كان يدخن النرجيلة، وقال بإنجليزية رديئة: «احذروا منه».

قال جون وهو يستجمع قواه: «مَن، أو ما أنت - كناية عن غير العاقل- لتحذرنا؟».

نظر له الكائن، وقال: ما هي إلا سنوات بسيطة وسيظهر المخلص، احذروا من ذي القبعة الزرقاء، احذروا من «محمد».

وفجأة، أخذ ينتفخ بشكل غريب، وصوت صفير حاد اجتاح الغرفة.

اهتزت الجدران، ودوَّى جهاز الإنذار.

وفجأة..

بوووووم..

العام ٢٠١٠، كان عامًا مليئًا بالأحداث التي تفوق الخيال، فوق ما يتصوره البشر.

فشهد العالم خلاله زلزال اليابان، وأعاصير وكوارث فوق احتمالات البشر، وشهد منذ أيام تفجير كنيسة القديسين، التي راح ضحيتها ٢١ مصريًّا.

أما بالنسبة لزلزال اليابان فقد شغل الرأي العام كثيرًا، خاصة لظهور جزيرة من وسط طبقات الأرض؛ لتكشف عن سر ربما كشفه العالم قريبًا، وربما لن يكشفه أبدًا، أما الآن فنحن لا نعلم إلا الفتات.

أما بالنسبة لمحمد، فكانت حياته هي سلسلة من الأحداث الغريبة ومحاولات القتل لأسباب غير مفهومة.

هو الآن يعمل في إحدى شركات السياحة، حياته المادية معتدلة قليلاً،

وحياته العاطفية متأججة.

«وما له لو ليلة تهنا بعيد وسبنا كل الناس» رنة هاتفه النقال.

«حياتي، أشتاق لصوتك».

«حبيبي، أنا من أشتاق إليك».

«سأراكِ غدًا».

«مع أول بزوغ للشمس، لا تجعل حوادث قتلك تلهيك عن فرحنا».

قهقه «محمد» بالضحك، وأغلق الخط بعد الكثير من: «بحبك، بحبك».

كم أنا محظوظ!

على الرغم من كل محاولات قَتلِه، فإن «ساندي» كانت تنسيه الماضي والحاضر.

كان خجولاً بعض الشيء، فلم يكن له علاقات أو صداقات كثيرة، وازداد الخوف عنده نسبة للحوادث التي أصابته، ولكن كل شيء تغير في الجامعة.

كان يدرس في إحدى الجامعات الخاصة بكلية الهندسة، ولم يكن له أصدقاء تقريبًا، إذا استثنينا «عبَّارة» صديقه القديم و«شومة» زميله في المحاضرات.

في أحد الأيام كان كعادته يركز في محاضرة مهمة عن الانشطار النووي، كعادة الطلاب كانوا في حالة من الشلل التام الناتج عن الملل، تذكروا أنها كلية خاصة.

«اعذرني يا دكتور لقد تأخرت».

قالتها بصوت عذب، مما جعل الكل ينظر لها بإعجاب، ولكن «محمد» كان الوحيد الذي فضحته نظراته لها، فجأة تحول الكل في عقله إلى التشويش والظلام، وتركز الضوء على «ساندي».

عرف اسمها عندما قال لها الدكتور «لا تفعليها ثانية يا ساندى، لو كان أحد غيرك لحرمته من محاضراتي إلى الأبد».

مرت الأيام من تبادل النظرات، فالابتسامات، فالكلمات، فالمقابلات، فالمصارحة بالحب، أيام تلت أيامًا كان تعلّقه بها يزيد، يشعل النيران داخل قلبه الصغير، يتمنى أن يجمعهما القدر في بيت واحد وفراش واحد، وقتها فقط سيشعر أنه الأكثر حظًّا في التاريخ.

عودة إلى اللقاء الذي سوف يجمع «محمد» بساندي، كان «محمد» يرتقب هذا الميعاد بشوق غريب.

ها هو ذا يرتدي ملابسه على صوت أم كلثوم: «أغدًا ألقاك.. يا خوف فؤادي من غد»، ويربط على رأسه العمامة الزرقاء.

سألته حبيبته مرة عن سر العمامة، فحكى لها عن جرحين في رأسه: الأول وهو طفل عنده سبعة أعوام، والآخر وهو في ثانوي عندما اخترقت طلقة طائشة جلد رأسه من أحد المارين الغرباء، قبل أن يهرب ويختفي معه صديقه «عبّارة».

ها هو يقف أمام المكان الذي تعودا اللقاء فيه منذ خمسة أعوام.

مر نصف ساعة، هاتفها خارج نطاق الخدمة، ماذا حدث لها؟

تقدمت منه امرأة ذات شعر أحمر، اقتربت حتى لامست أنفاسها وجهه، اندهش من هذه الجرأة المبالغ فيها، وقال: «نعم».

نظرت له ببرود، وقالت: «ساندي لن تأتي اليوم، ولن تأتي مطلقًا، فنحن اختطفناها»، نظر لها «محمد» وصرخ قائلاً:

مَن أنتم؟

قالت وهي تضحك بسخرية: «جيوش الرب»، وأخرجت إلكتريك وصعقته، وأطلقت ساقيها للريح.

آخر ما قاله كان «ساندي»، قبل أن يغشى عليه من هول الكهرباء في مخه.

القتيل

وعايزنا نرجع زي زمان

قول للزمان ارجع يا زمان

(أم كلثوم)

بنظرة تختالها الرعب، أيقن «يحيى» أنه في نفس المكان الذي قطع فيه شريانه من قبل، نفس البدوي عاري الصدر يحمل فأسًا وينظر له في ثبات.

«لقد قُتلت، لماذا لم أعبر هذه الحقبة المملة؟» قالها «يحيى» بصرخة يخالجها الحزن والغضب في الوقت نفسه، نظر له البدوي بدهشة، ولكن هذه المرة لم يصِح لأصدقائه الهكسوس؛ بل رفع فأسه وأطاح برأس «يحيى»، جعلت الدهشة تجتاح عين «يحيى» في رأسه المتدحرج.

ظلام.. ضوء.. دوامة.. ارتطام.

صوت في عقله ينادي: «أجدادك عبثوا بالزمن، والذنب ذنب الجدود.. احصد يا واد واتقتل، لا تنتحر وإلّا لن تعود»، أفاق «يحيى» والصوت يتردد في ذهنه بلا انقطاع، يبعد الصوت عن عقله الباطن بهدوء، حتى اختفى نهائيًّا، ولكن الكلمات علقت في خاطره المشوش، ضرب

«يحيى» بقبضتَي يديه بحركات عصبية على الأرض التي التصق وجهه بها، وهو يردد: «فيم أذنبت؟»، كان يحاول أن يفيق من غثيانه، عندما تذكر حكايات أمه عن جده البطل، «جدك كان بطلاً، حارب في فلسطين ضد اليهود واختفى، قتل ٤٠ يهوديًّا قبل أن يبلغونا بقتله، جدك كان بطلاً».

«ماذا فعلت يا جدي؟ والله، لأن وصلت إلى زمنك وأمسكت برقبتك لأقتلك»، قالها «يحيى» وهو يكتم ابتسامة على شفتيه المرتعشتين، الجنون سيتمكن منه قريبًا، مَن كان يصدق أن هذا الطالب النحيل فجأة يكون عابرًا للزمن؟!

رفع «يحيى» رأسه محاولاً مقاومة الإرهاق والغثيان اللذين أصاباه منذ الوهلة الأولى، عدل من ملابسه الداخلية التي احتفظت ببياضها على الرغم من الاصطدامات والهفوات والعرق والهروب، لفت نظره أنه لا توجد قطرة دماء عليها، مع أنه قد ذُبح وقُتل أكثر من مرة.

تفقد المكان من حوله وتوجس، المكان يشبه الصحراء كثيرة الجبال، هناك أكثر من منزل مبني من الطوب اللبن بـ«أسلوب بديع» تعرف عليها؛ لأنه مهندس، ولكن ليس هناك أي صوت يمر على أذنيه، هي كمدينة الأشباح؛ حيث منازل بلا سكان، ولا أطفال تلهو، ولا أي شيء.

تجول في هذه المدينة يطرق الأبواب ولا من مجيب، وجد بابًا مفتوحًا على مصراعيه، وبالداخل موقد، تحسسه وجده ما زال ساخنًا، وبقايا طعام هو خبز من القمح وبعض اللبن، تشممها ثم أكلها، في محاولة

منه للبقاء حيًّا حتى يجد وسيلة للموت السريع، على الرغم من كثرة الانتقالات فإنه إذا حسب الوقت الذي أمضاه حيًّا فلم يتجاوز نصف اليوم، بحث عن ملابس فوجد شيئًا يشبه الجلباب القصير مصنوعًا من الكتان، ارتداه وبحث عن أي شيء يعرف منه في أي فترة زمنية هو.

وجد أوراقًا مرسومًا عليها أشكال تشبه الطيور وأطباق الطعام وبعض الرموز، إنها الهيروغليفية لا شك في هذا.

إنه في مصر الفرعونية، ولكن أين أهل المدينة؟

أراح جسده قليلاً، ثم خرج سائرًا مرتديًا نعلاً خشبيًّا وغطاء رأس وجدهما في هذا المنزل، وسار قرابة الساعتين يبحث عن أي ملاذ للفرار أو الموت.

فقد إحساسه بالوقت، يسترشد الوقت بالشمس، هي فترة الظهيرة، وهذا هو الأهم بالنسبة له.

ظل سائرًا تحت أشعة الشمس الحارقة مقاومًا العرق الذي تصبب منه، والخوف الذي أصبح أمرًا واقعًا في شخصيته، حتى مرَّ على سمعه صوت تهليل.

اتجه نحو الصوت بخطوات ثقيلة يسترشد بأذنيه، حتى وجد جمعًا غفيرًا من الناس يقفون كمن يشاهدون مشاجرة أو عرضًا ما.

اتجه إليهم وهو يرسم الثقة على وجهه حتى لا يرتاب به أحد، لاحظ أن الجمع كبير جدًّا، وهناك جنود تحرص على انتظام الجمع، الكل يهلل

ويضحك، وهو لا يرى على ماذا يهللون.

تزاحم وسطهم محاولاً كشف المشهد، رأى قرابة العشرة أشخاص يقفون بجانب بعضهم، ويشيرون إلى الجمهور في حركات استعراضية، يحملون العصيّ والحبال ويدهنون أنفسهم بالزيت والألوان كمن يستعد لحرب ما، والجمهور يصيح ويهلل بلغة لا يفهمها، شيء يشبه عرض المصارعة الحرة في زمنه.

استرق السمع إلى ما يقوله شخصان يقفان بجواره.

الأول: هان تيشخان مهور سي روف.

الثاني: كالا بختار شيمس كورلاااار.

الأول: هاهاهاهاهاها كيما كيما هيبابا..

يا له من حوار جميل، بالفعل استفاد الكثير عندما استمع لهما.

بصق جانبهما ثم ابتعد عنهما في ملل.

نظر إلى العرض واندهش، كان ما رآه هو الذهول نفسه، يقف العشرة أشخاص أمام رجلين، أحدهما ضخم الجثة عريض المنكبين أسمر اللون، تدل عيناه على صفاء وإيمان غريب، كنظرة الشعراوي إلى متابعيه حين تشع عيناه طيبة وهدوءًا في تفسيراته على شاشة التلفاز، وبجانبه شخص يشبهه، ولكن ليس في قوة جسمانه؛ لكنه يمتلك نفس النظرة الإيمانية الغريبة.

يقفون في ثبات وثقة يشاهدون هؤلاء الأشخاص العشرة في نظرة

غريبة.

على الجانب الآخر كان هناك رجل عجوز يلبس ملابس قمة في الروعة والجمال والإبداع والنظافة، مصنوعة من الذهب الخالص وبعض المجوهرات، يحمل في يده صولجان ذهبيًّا تعتليه ألماسة، حوله الحرس ورجال يحملون الخوص وورق الشجر ويقلبون الهواء له في محاولة لمقاومة قيظ الظهيرة.

كان من الواضح من ملابسه أنه ملك فرعوني، له هيبة، ويجلس بجانبه رجل خبيث النظرات يهمس في أذنه، ويضحك الفرعون.

التفت «يحيى» إلى العشرة أشخاص عندما ألقوا على الأرض العصي والحبال في عرض مذهل، هلل له الجمع بحماس عجيب، فإذا بالعصي والحبال تتحرك في أشكال مموجة تشبه الثعابين.

فهم «يحيى» ما يشاهده واندهش؛ بل وبكى مما يراه، هو مشهد قرأ عنه كثيرًا، ولم يكن يتوقع أنه سيشاهده في عرض مباشر، لم يتوقع أن يكون من بين الحضور، أن يكون في الصفوف الأمامية.

صمت الجمع عندما أشار الفرعون إلى الجمع، وهب واقفًا، وقال بصوت أجش: «شير رع، جام ريعو موسى».

ذو العمامة الزرقاء

«يا لهذا الصفاء، كم أتمنى أن أظل هكذا إلى الأبد!».

بابتسامة خافتة قالها «كليبر» باستعلاء بلحيته الكبيرة ونظراته الحادة التي لا تخلو من عنصرية تجاه كل ما هو عربي.

كان «كليبر» قائدًا مخضرمًا في الجيش الفرنسي، كان من عامة الشعب، أو بالأصح من الفقراء، وبعد قيام الثورة، فاز بثقة كل رجال الحكم في فرنسا، حتى إن «نابليون» قد تركه حاكمًا على مصر وقتها، وأعطاه كل الصلاحيات التي تلزمه؛ ليكون حاكمًا من حديد، فقد كان معروفًا عنه أنه شديد البأس، ذو قلب قاسٍ على رعاياه، كان هو رجل الإمبراطورية حرفيًّا، «نابليون» نفسه كان يعالج مشاكله مع بريطانيا وقتها، ولم يكن ذا مقدرة على متابعة كل كبيرة وصغيرة في أنحاء الإمبراطورية، كان أول ما فعله «كليبر» في أول عهده أن قطع دابر المعارضة حتى لا يقوم عليه أحد، فالمعارضة في مصر كانت تشتعل كما هو معهود من شعب مصر، خصوصًا في رشيد والإسكندرية ومدن الصعيد.

«كيف لهؤلاء الرعاع أن يرفعوا أصواتهم على أسيادهم؟».

على الرغم من أن الثورة الفرنسية في الأصل قامت على الطبقة

الأرستقراطية، ولكن لهجته أبدًا لم تخلُ من التكبر والاحتقار لكل ما هو عربي، يراهم رعاعًا اعتلوا الحكم في وقت من الأوقات، ولا بد من تصحيح الأخطاء، حاول البعض أن يقاوم، ولكن قام الجنرال كليبر بعمل ما يشبه التصفية بعد تدمير أسطوله في أبوقير بالإسكندرية على يد ثوار مصر، وأيضًا لانشغاله بمطاردة العثمانيين، قامت ثورة القاهرة وقتها من حي «بولاق»، ولكن كليبر كان قد نصب مدافعه على جبل المقطم ونسف الحي كله، بمن فيهم الأطفال والنساء، كان أهم من أعدم بعد ثورة القاهرة الثانية معلمًا أزهريًّا من قادة الثورة، قطع حبل أفكار كليبر صوت أحد الحرس قائلاً:

سيدي، العالم «شامبليون» يريد مقابلتك، يقول إن لديه معلومات مهمة.

أشار إليه «كليبر» بالدخول، فظهر أمامه رجل طويل الشعر معقوف الأنف، ذو ملابس رثة، لا يختلف منظره عن منظر أي عالم في هذا الوقت ممن لم يهتموا بمنظرهم الخارجي قط، ربما؛ لأنه عبقري يشغل عقله بما هو أهم من الملابس، أو لأنها تضفي عليه هيبة العلماء، أو ربما لأنه فقط غير نظيف، أشار إليه «كليبر» بالتحدث.

فقال:

سيدي القائد، لدي معلومات قد تهم زعيمنا نابليون تتعلق بمصير أوروبا كلها.

اعتدل كليبر:

تكلم وأعدك بإيصال المعلومة إذا كانت ذات أهمية.

شامبليون:

أنت تعرف أن نابليون أرسلنا مع الحملة لدراسة أجواء مصر، وأيضًا تعلم أنني قد فككت رموز الحجر العجيب الذي وجدناه مدفونًا في أرض رشيد.

قال كليبر:

صحيح، وكان الحجر يتحدث عن معركة حدثت بين قدماء مصر وقدماء الغرب.

قال شامبليون:

نعم، هذا ما يعرفه البعض، أو ما كنت مقتنعًا به، حتى اكتشفت حلاً لباقي رموز الحجر البارحة.

قال كليبر:

ماذا تريد أن تقول؟

ما أريد أن أقوله إنها بالفعل معركة بين قائد مصري وملوك الغرب، خاصة أوروبا، ولكنها لم تحدث حتى الآن.

ماذا؟!

نعم، إنها معركة ستحدث قريبًا، سيسقط فيها أهم ملوك أوروبا، الحجر تاريخيًّا في هيئته، ولكنه كالبلورة السحرية، يحمل أمرًا مستقبليًّا، وليس حدثًا تاريخيًّا.

ما هذا الهراء الذي أسمع، هل صرفت الحكومة الفرنسية عليك لتأتي لنا ببعض الترهات؟

انتظر سيدي فأنا لم أكمل، إنها ستكون حربًا مهولة، ولكن ليست بين البشر فقط.

تصبب كليبر عرقًا:

هل أنت مجنون؟

حجر رشيد كان رسالة تحذيرية كتبها الكهنة؛ لهذا كتبوها بكل اللغات لتحذير العالم من الخطر الداهم.

صمت كليبر لبرهة:

إذا صدقتك، قل لي: مَن سينتصر؟

هم بالطبع، ولكن سيعم الدمار أرجاء أوروبا، أحذرك قد تكون الحرب هذا العام، وقد تكون بعد مائة عام، فهي لم يُحدد وقت لبدئها.

ابتلع كليبر ريقه بصعوبة، وأشار إلى شامبليون إشارة مغزاها أنه سيخبر نابليون بالرسالة، وعليه الانصراف الآن، ترك كليبر الشرفة، وارتدى ملابسه الرسمية، وتوجه إلى القصر الآخر الذي يستخدمه للعمل، وعندما دخل هو ومدير الشرطة من باب القصر، كانت المفاجأة، شاب عربي يخرج من بين الأشجار، ملابسه رثة ويبدو عليه أنه شحاذ، وفى يده سلاح أبيض، وفى لحظة طعنه عدة طعنات وهو يقول:

«فاض بنا يا أيها المحتل، فلتمت فرنسا اليوم، هذا عقابك على قتلك لنا كالخراف».

حاول مدير الشرطة منعه، ولكن كان قد طعنه هو الآخر، وهمَّ بالفرار، وكان آخر ما سمعه كليبر قبل أن يغمض جفنيه صوت أحد حراسه يقول:

أمسكوا بهذا الحلبي.

عاد «محمد» هذا اليوم في حالة تشبه الغيبوبة، تمنى أن يُقتل أو تصيبه حالة من الشلل؛ ليكون مغيبًا عما يحدث له، لماذا هو؟ ماذا يحدث له؟

فلتتركوا «ساندي» ولتقتلوني أنا، ماذا فعلت لهؤلاء حتى يعذبوني هكذا؟

فالبطبع ما يحدث هو حالة من الجنون، بالتأكيد هو يهلوس، نعم، هذا هو التفسير الوحيد.

فلماذا إذن يحاول الجميع قَتلَه وخطفَ أحبائِه؟

هل هو مجرم حرب هارب فاقد الذاكرة وهو لا يدري؟ هل هو مصاب بالاضطهاد؟ ولكن هناك الكثير من الشهود الذين حضروا الوقائع كلها، الندوب في رأسه لا تكذب، قطع حبل أفكاره، رنين هاتفه الجوال، صوت سيدة تشهق وتبكي وتقول:

أين ابنتي يا «محمد»؟

لم يرد، والتزم الصمت، هو لا يعرف ماذا يقول.

أنا أعرف أنها كانت معك، قل لي ماذا حدث؟

كان في موقف لا يحسد عليه، لا يعرف ماذا يجب عليه فعله، أغلق المكالمة في وجهها، ودفن وجهه في الوسادة باكيًا، كان قد أبلغ الشرطة بما حدث، وقال في نفسه إن الشرطة بالتأكيد ستخبر أمها، غير هذا هو كان في عالم آخر، مغيبًا عن الواقع، يشعر كمن شرب الكثير من الخمر، فلا يرى ولا يسمع، كان يلتفت إلى المصباح فيرى وجهها وابتسامتها المشرقة فيزداد بكاؤه، يتذكر كلماتها فيتقطع قلبه عليها، ينظر إلى رسائلها، يقرأها بصوت باكٍ ويقسم بأنه سوف يرجعها، أصوات الطرقات على غرفته من أهله تكاد تكسر النوافذ من شدة الصوت، ولكن هو لا يرى ولا يسمع إلا ساندي.

آه يا حبيبتي، لماذا خطفوك أنتِ بالذات؟ لماذا يحرقون قلبي عليكِ؟

يسمع صوتًا يشبه صوتها من نافذة حجرته فيهرع، والأمل يتدفق إلى قلبه، فلا يرى إلا الظلام، تفيض دموعه بالبكاء، وينوح عاليًا، مرت عليه ثلاثة أيام وهو على هذه الحال، لا يأكل، لا يخرج، لا ينطق إلا: «أين أنتِ يا ساندي؟ اظهري يا ساندي».

طرقات على الباب، فتح فوجد أمه:

محمد، هناك شرطي على الباب يريدك بخصوص ساندي.

أجفل «محمد» من غفوته، وقفز إلى الباب، فرأى جنديًّا يقف:

يريدونك بالقسم.

توجه «محمد» بما عليه من ملابس إلى القسم مهرولاً، أخذ الضابط

للمزيد من الحصريات موقع sa7eralkutub.com
جروب الفيس بوك fb/groups/Sa7er.Elkotob/

يرمقه بنظرة حزن.

لقد وجدنا جثة مشوهة تشبه إلى حد ما مواصفات المفقودة التي أخذنا صورها من أمها ومنك، نريدك أن تذهب إلى المشرحة؛ لتتعرف عليها.

كان الضابط غريبًا، هل عيناه لا ترمشان؟ أم أنه يتخيل؟ هل هو لا يترك ظلاً على الأرض؟ أم أنني قد بدأت أهذي؟ لماذا تهتز شفتاه بهذه الطريقة؟ «محمد»، اثبت على عقلك، لا تفقد عقلك الآن.

القتيل

إني شربتُ الكأس سمًّا ناقعًا لتدارَ عندَ شفاهكمُ أكوابا

أنتم أسارى عاجلاً أو آجلاً مثلي وقد تتشابه الأسبابا

والفاتحون الحمر بين جيوشكم لقصوركم يوم الدخول كلابا

قالها صدام حسين عند محاكمته.

كان المشهد الأخير مهيبًا، حينما رفع الفرعون يده وصاح بالهيروغليفية يلفظ اسم «موسى» في غضب وسخرية، ازداد المشهد رهبة وعجبًا عندما اقترب من السحرة الساخرين، وألقى بالعصا من يده، فتحولت إلى ثعبان ضخم جدًّا في حجم اثنين من الأناكوندا أو يزيد، كان «يحيى» يشاهد كل هذا وبداخله نشوة استمتاع، أحقًّا هذا ما يراه؟ هل اليوم هو يوم الزينة؟ هل يشاهد ما كان يقرأه في القرآن وأسفار الخروج؟ هل فعلاً حدث ما كان يشكك في حدوثه في القرآن؟ اليوم يرى كل شيء بعينيه ويكاد لا يصدق المشهد، ما حدث بعدها كان ضربًا من الخيال، الثعبان في لحظة التقم كل الحبال التي كانت تتحرك، يخرج لسانه ويصدر فحيحًا، فيتراجع الجمع في خوف مهول، يرتفع ويتحفّز للهجوم ثم يهدأ؛ ليكمل وجبته من الحبال والعصي، كان مشهدًا مرعبًا، حتى

إن الفرعون قد تقهقر هو والجنود والسحرة خطوات للوراء، واعتلته نظرات دهشة ورِيبة، توالت الاندهاشات بين الجموع بعد لحظات، عندما نظر السحرة إلى بعضهم بعضًا في لحظة صمت مرت كالأعوام، ثم نظروا إلى الفرعون نظرة خاطفة، قبل أن يسجدوا على الأرض وهم يرددون: «حور موسى.. حور موسى.. حور موسى»، من الواضح أن تأثير المشهد كان قويًّا على الجمع، فبعض منهم سجد هو الآخر، والبعض اكتفى بالصمت، دار حوار غاضب وصراخ من الفرعون على السحرة، فجأة، تقدم الحرس بسيوف وقبضوا على السحرة، ودار حوار بينهم وبين الفرعون، تلت هذه فئوس ضاربة وقطعوا أيديهم وأرجلهم وعلقوهم على جذوع النخل، كل هذا كان يعرفه «يحيى»، حتى إنه عرف مصيرهم، ومصير غرق الفرعون وجنوده، «غرق؟» قالها لنفسه، «قرر «يحيى» أن ينتظر هروب بني إسرائيل إلى البحر، ويتقدم مع الجنود فيغرق معهم، حتى ينتقل بالزمن إلى زمن متقدم، فقد كان قد ضاق به الحال، ويريد أن يرتاح، بالفعل هرب اليهود، صرخ الفرعون وامتطى عربته ووراءه جيشه، انتظر «يحيى» خلف إحدى الأشجار وضرب أحد الحرس على رأسه، أخذ ملابسه وهرول مسرعًا نحو المياه، انتظر حتى رفعت المياه على الجانبين وتقدم وراء الجيش، غمرهم الماء، ودخلت المياه رِئتي «يحيى» وهو يبتسم.

ظلام.. ضوء.. موجة.. ارتطام.

***

استعاد «يحيى» وعيه، وهو يشهق من الغرق وآثار المياه التي غمرته، وكان أمرًا عجيبًا أن ملابسه لم تبتّل؛ بل اختفى الرداء الكتاني، وأصبح كما كان بملابسه الداخلية، كان المكان غارقًا في الظلام، وصوت صراخ يعلو من مكان قريب، هذه المرة لملم «يحيى» أنفاسه، وجرجر أعضاءه باتجاه الصوت، كان المشهد مهيبًا، جمع من الناس يجتمع في مكان يشبه المكان الذي خرج منه منذ قليل عند غرق الفرعون، ونفس التجمهر، ولكن الأمر اختلف، المكان أكثر تمدنًا، وجمع من الرجال الذين يبدو من ملابسهم أنهم رجال دين ذوو هيبة، يرتدون ملابس تشبه ملابس الكنيسة، وهناك رجلان يبدو أنهما محور الحدث، مكبّلان وعليهما آثار ضرب ودماء، ولكن هذا الرجل على يمين الحارس، يبدو أنه ضُرب ضربًا مبرحًا، وما هذا الذي على رأسه؟

كان يقف بين الرجلين رجل يلبس ملابس على ما أظن أنها رومانية؛ لما بها من دروع ودهب، يبدو عليه أنه الحاكم؛ لأنه عندما تحدّث حل الصمت على الجميع، قال بلهجة غريبة: «يونوس كريبتوس سي مزراه برابا أوه كريبتوس ماسيه؟»، صمت الجميع لبرهة، فصرخ أحد رجال الدين وهو يشير إلى يسار الحاكم: «ريليس بارابا!!!!!».

وهلّل الجميع، فأشار الحاكم إلى الحرس ففكّوا قيود مَن كان على يسار الحاكم، وألقوا به إلى جمع، وكان الأخير يضحك بهستيريا غريبة.

أما الآخر فقد ساقوه إلى حيث يوجد عمود خشبي على شكل صليب، وأجبروه على حمله على ظهره.

كان الجمع يصرخ، ويقول: «كابار.. كابار»، وهناك بعض الأشخاص الذين يبدو عليهم الفقر يبكون ويقولون: «ميساياه»، انتهى «يحيى» بنظره إلى مشهد رهيب؛ الحرس قد جعلوا الرجل يدق الصليب في الأرض وهو غارق في دمائه، ثم حملوه ورفعوه على الصليب الخشبي، غارقًا في دمائه من آثار التعذيب، ويصرخ بصوت واهن:

جاما جان ماسيح، شيبروس ماسيح.

وحوله بعض الجنود الرومان -من ملابسهم- يجلدونه ويصرخون:

«كاباااااااار».

نظر حوله على صوت خفيض يقول إلى شخص من الواضح أنه صديقه:

شيبوناريس ماسيح.

ثم أشار بأصبعه إلى السماء.

شيبوماسيح آيلي كانور.

أشار صديقه:

«آاااه».

يالدهشة التي يعيشها «يحيى» الآن، لو صحت أفكاره، فهو الآن يشهد على أهم حدث قد يغير مجرى التاريخ إلى الأبد، هل هذا المعلّق هو المسيح كما يقول أتباعه؟ أم أنه يهوذا الإسخريوطي كما يقول المسلمون؟ أم أنه في زمن آخر؟ قطع دهشته صرخة من سيدة عجوز:

«شيماااار».

وأشارت إلى «يحيى» بنفسه، دق قلب «يحيى» خوفًا، هل يشبه أحد أتباع المسيح مثلاً؟ هو مصري الشكل ولا أحد يشبهه من تلاميذ المسيح، ربنا كان يشبه برنابا أو مرقس؟ هل سيقتل الآن؟ اتجهت النظرات إلى «يحيى» الذي صمت قلبه عن الدق من التوتر والخوف، كانت اتجاهات العيون تشير إلى جسده، تذكر هو أنه غريب وأنه أيضًا بالملابس الداخلية، حاول أن يداري جسده بيديه، ولكن تقدم إليه أحد الحراس:

«جابير شينراز كاتاااريوس».

وبصق بوجهه، ثم أشار إلى خارج الجمع.

واضح أنه يقول: «اذهب بعيدًا أيها المجنون».

خرج «يحيى» واتجه بعيدًا والحزن يسيطر عليه، كان يريد أن يعرف الإجابة، كان يريد أن يقتل على الأقل، ولكن لاحظ «يحيى» أن أحد الرجال ذا ملابس فقيرة يتبعه، توقف «يحيى» منتظرًا هذا الرجل، قال له بالعربية بصعوبة:

«أنت آآيحيى أليس كذلك؟».

استغرب «يحيى» من أنه يتحدث العربية، وأنه يعرفه.

أجاب «يحيى»:

نعم أنا يحيى، من أنت؟

قال الرجل:

أنا بولس، من تلاميذ المسيح.

قال له «يحيى» بالفصحى والدهشة تسيطر على مشاعره:

وماذا تريد؟

قال الرجل:

المسيح أخبرنا على العشاء قبل أحداث اليوم بثلاث وصايا، وأقسمنا على تنفيذها: أولاً: أن نبشّر به في أرجاء الأرض، ثانيًا: أن نحذر أولادنا وأحفادنا من ظهور الفتنة الأخيرة وهو عدو المسيح، ثالثًا أن نقتل محرره الذي تنبأ لنا اليوم بظهوره، ووصف لنا هيئته.

صمت لبرهة، ثم أخرج سكينًا من طيات ملابسه.

أكمل مسيرتك يا فتى.

ولكن هل المسيح هو هذا.

غرز السكين في قلبه سريعًا قبل أن يكمل بلا أي مقاومة، كان «يحيى» قد بدأ في ترجمة بعض الأسرار التي تحتاج إلى حلقة، وعد نفسه بأن يفكر فيها في الزمن الذي يليه.

ظلام.. ضوء.. موجة.. اصطدام.

***

أفاق «يحيى» بداخل صحراء حارقة، وكان يتصبب عرقًا، وهو ما زال يتنفس بصعوبة من آثار الموت من الموت.

ما هذا الجو الحارق يا إلهي؟

هو في الحجاز، ويعلم بهذا، لكن في أي تاريخ هو؟ وأي حدث؟ هل أنبياء قدامى؟ أم عام الفيل؟ أم هو في المستقبل؟ أم أم؟، تساؤلات كثيرة خطرت على باله وقتها، سار في قيظ الشمس الحارقة أميالاً حتى كاد يموت من الجفاف، ويعيد الزمن ثانية، حتى لمح بعض الخيام وبعض المنازل المبنية من الطوب، اتجه صوب أحد المنازل التي كانت تشبه الملهى أو النادي من تجمّع الناس حولها وداخلها، يتجمع فيه بعض الرجال الملتحين كبار السن، وواضح على ملابسهم هيبة ووقار وعزة، مع العلم أن وجوههم محترقة بفعل الطبيعة الصحراوية، سار على مسافة قريبة حتى تذكر أنه بملابسه الداخلية، بحث عن جلباب يشبه جلبابهم فلم يجد، ربط فانلّته على رأسه وهرول ناحيتهم، دخل وقال جملة سمعها من قبل في مصر الفرعونية: «شين راع بصل ساس».

صوت أجش:

عمت مساء يا هذا، استَر نفسك يا مجنون، أأنت أعجمي تائه؟

«يحيى»:

ما هذا؟ هل هذه هي العربية بالفعل؟ قالها بسعادة.

صوت أجش يخاطبه:

ماذا؟ يا لها من لكنة غريبة!

ينظر لأصحابه:

يبدو عليه الجنون، أيكون من أتباع المجنون؟

«يحيى»:

أنا لا أعرف مجانين، من أنت حتى تكلمني هكذا؟

قالها بلا مبالاة.

ألا تعرفني؟ أنا الذي ذاع صيتي القبائل، وعرفني الأبله قبل السيد، أنا سيد قريش عمرو بن الحكم، أتجرؤ على اتباع أهوائك المريضة والتجرؤ على محادثتي بأسلوب ركيك لا يليق بوقاري أيها الأسمر؟ إنك لمجنون وفقير ورث، أكل أتباع «محمد» هكذا؟

أصوات ضحك وسخرية.

يحيى باندهاش:

سيدنا «محمد» هنا؟ أين هو؟ أريد أن أراه.

وظل ينظر حوله في لهفة ودهشة، فقد تمنى من قبل أن يراه في الأحلام، أو عند موته.

قال أبو الحكم صائحًا:

سيدك «محمد»!! واللات والعزى لن تعيش لغد حتى تراه وتلقبه بسيدك، قام من جلسته رافعًا سيفه، وبحركة دائرية قطع من وجهه قطعة كبيرة.

نظر له وهو يحاول كتم الدم، ولكن من دون صرخة واحدة ولا تأوُّه.

تكلم أبو جهل (اسمه الأشهر):

أعجبتني يا هذا، من لا يصرخ كالنساء عند الضرب يفوز باحترامي؛ لهذا لن أقتلك الآن، سأعذبك قليلاً حتى أرى إلى متى ستصمد، فإما أن تترك أهواء «محمد» وسحره وترجع لآلهتك وتموت برفق، وإما أن تتمسك بجنونك، وحينها ستتمنى من يأتي ليقتلك.

تقدم نحوه أبو جهل وربط عنقه بسلسلة وظل يجرجره على الرمال، وأصحابه يسخرون من ضعفه.

كان «يحيى» غارقًا في التفكير، هو يريد أن يقتل، وفي الوقت نفسه هو مسلم، ولن يكفر بدينه ليموت، هو لا يضمن هل سيموت هذه المرة للأبد أم لا.

كان «يحيى» لعبة أبي جهل، ربطه في الصحراء على أحد الأعمدة الخشبية بعد أن نزع ملابسه، وكان يحمل بيده سوطًا طوله متران أو يزيد، وفي حوافه قطع حديدية، وبدأ الضرب، وهو يردد: «أنت مجنون، والدتك عبدة مجنونة، اتركه لتنعم بالراحة الأبدية»، وكان لسان «يحيى» لا ينطق إلا بالشهادة والضحك، هو يريد الموت للانتقال، وعذابه هذا أصبح لا يؤثر به، كالذي يتوجع أول مرة من أخذ المحقن، ثم يتعود على شكّته، قاطعه صوت مقبل من الخلف:

اتركه يا أبا جهل، أنا أتكفل به وأدفع فيه ما تريد.

ذو العمامة الزرقاء

«ها هو ذا الرسام المجنون، ألقوا عليه الحصى سريعًا».

تقدم بعض الأطفال جريًا باتجاه الفتى النحيل «دافينشي»، يلقون عليه الحصى وينعتونه بالمجنون، الجميع يعلم أن خللاً ما قد أصابه، منذ أن عاد بعد غياب دام عامين وقد تغير حاله تمامًا، فأصبح لا يأكل ولا يشرب إلا ما يسد حاجته فقط، لا يتحدث مع أحد مطلقًا إلا فيما ندر، أطلق شعره في تصفيفة غريبة الشكل، وأطلق لحيته في شكل ليس بالغريب على زمننا هذا، ولكنها كانت كَلِحى المتسولين في زمنه، كان إذا سأله أحد: «أين كنت؟»، كان يرد ويقول: «كنت أزور الغد»، فأطلقوا عليه دافينشي المجنون، وأصبحوا يتجنبونه.

«إن ليوناردو لم يكن هكذا أبدًا، ماذا جرى له فقد كان محبوبًا بيننا في أنحاء فلورنسا كلها»، كانت تتردد الأقاويل عما حدث معه منذ أربعة أعوام من الصمت، ماذا رأى في الأعوام الأربعة خصوصًا في آخر عامين؟ ما سر لوحاته ومنحوتاته التي تحولت من لوحات مسيحية إلى لوحات غريبة مليئة بالكائنات الغريبة؟ كان يسكن الريف، ولكن اختفاءه كان حديث العامة لسنوات، خاصة أنه كان ثريًّا، وشخصية مرموقة؛ بل كان وسيمًا أيضًا، قالوا إنه اختطفته الشياطين إلى باطن

الأرض، وقالوا: بل سكان السماء؛ لكن لم يعلم أحد السر إلا هو.

دعونا نرجع خمس سنوات إلى الوراء؛ لنرى ما حدث معه بالفعل.

كان كعادته يتمشى بتباهٍ فيخطف الأنظار، ينظر إلى هذه فيدق قلبها، يتجه بنظره إلى تلك فتنهار من وسامته، كانت حياته رتيبة وجميلة جدًّا وجزءًا من الحلم الجميل، حتى كان اليوم الذي قلب حياته رأسًا على عقب، فقد قرر أن يتمشى قليلاً إلى جانب النهر في الطريق إلى الوديان التي تشتهر بها مدينته، حتى سمعت أذناه صوت صرخة أنثوية، سار بخطاه سريعًا نحو الصوت، كان يأتي من داخل أحد الكهوف المهجورة، كان يرتعد خائفًا، وقرر ألا يدخل هذا الكهف المظلم، ولكن صوت الصرخة دفعه للدخول ليرى ماذا يحدث، سار بخطوات بطيئة يحاول ألا يُحدث صوتًا، ظل يسير ويبحر بداخل الكهف نحو الـ١٠ دقائق حتى سمع الصوت مرة أخرى، ولكن أقوى، كان الصوت يأتي من فجوة بداخل الكهف تشع نورًا، اقترب وقرر أن يختلس نظرة، رفع رأسه، ولكن الضوء كان أقوى منه، وسحبه إلى الداخل، قال الشهود وقتها إنهم سمعوه يصرخ: «إنه المستقبل»، قبل أن يختفي.

اذهب معنا يا فتى فستجد غايتك.

***

اليوم قد فقدنا مولانا الحسن العسكري يا فتيان، لقد غدر به المعتمد العبّاسي.

صوت باكٍ يقول: ولكن مَن سيخلفه فقد توفي بلا ولد ولا وليد.

قال آخر: ليس أمامنا إلا أخوه.

الصوت: جعفر الهادي؟ لا يصلح، إنه يشرب الخمر، ولا يفقه شيئًا من علوم آل البيت.

الآخر: ليس أمامنا غيره فلتذهب لتخبره.

كان يومًا عصيبًا بمعنى الكلمة؛ حيث جنود الجيش العبّاسي منتشرون في أرجاء مدينة العسكر، بل وفي أرجاء العراق كله، فقد قتل إمام الشيعة وهم قوم لا يهدأون.

كان الفتى الذي يبكي هو أبو العباس «محمد» بن جعفر الحميري القمي، من مدينة قمّ، وهي مدينة تقع بجانب سامراء بالعراق، وكانت العادة تقتضي جمع أموال الزكاة سنويًا ثم الذهاب بها إلى الإمام فيعطيهم علامة على أحقية إمامته بأن يخبرهم بعدد الدنانير التي يحملها الفتى وأسماء مَن دفعوا الزكاة وأسماء آبائهم.

كان الفتى شاردًا يبحث عن الإمام الجديد، الأخ الأصغر للإمام الحسن العسكري، جعفر الهادي، بعد بحث مطوّل وجده على سطح قارب في نهر دجلة، ومعه عازفون، ويحتسي الخمر.

صاح الفتى: سيدي جعفر الهادي.

قال جعفر: نعم أنا سيدك، مَن أنت؟

قال الفتى: لقد توفي أخوك وأنت الإمام الجديد.

أشار جعفر بيده محاولاً ألا يسقط القنينة التي تحمل الخمر، قائلاً:

نعم نعم، لقد علمت، ألا ترى أنني أحتفل هنا؟

قال الفتى: حسناً، معي أموال الزكاة ويجب عليَّ أن أسلمها إلى الإمام.

صاح جعفر وهو يفرك يديه فرحًا: أسرع، أين هي الأموال؟

ابتعد الفتى قليلاً وهو يقول: اتقِ الله يا عبد الله، أنت حتى لم تترحّم على أخيك، بحق جدك الحسين.

قال جعفر: ليس من شأنك، هيا أيها الخادم فلتعطني النقود.

قال الفتى: لا، ليس قبل أن أتأكد من إمامتك، أخوك كان ينبئني بعدد الدنانير وأسماء دافعيها.

صاح جعفر: أنت كاذب، هذا غيب، والغيب لله وحده، يبدو أنك فتى شقي، هيا أمامي إلى الخليفة، هو من سيفصل في الأمر.

ساروا قليلاً حتى وصلوا إلى قصر الخليفة فأخبره جعفر بالأمر.

قال الخليفة: لماذا ترفض إعطاءها إلى الإمام الجديد يا فتى؟

قال: ليس قبل أن أرى منه العلامة.

غضب الخليفة، وقال: أتعصي أمر مولاك يا هذا؟ بإمكاني أن أجعلك ترقد بجانب الحسن العسكري فتسمع من علاماته ما شئت.

قال الفتى وقد بدت علامات الارتياب تتضح على وجهه: سيدي، أنا لست صاحب الأموال، أنا مكلَف بتسليمها فقط.

قال الخليفة وقد بدأ يرضخ لأمر الفتى: حسنًا، لك ما شئتَ، بعد برهة

سيصلّي جعفر على روح أخيه وسينصّب إمامًا، عندها فقط يكون له الحق في أخذ النقود.

أومأ الفتى برأسه موافقًا، وكذا فعل جعفر، وساروا إلى المسجد معًا.

دخل جعفر الهادي المسجد الذي اجتمع فيه الشيعة كلهم؛ ليصلوا على روح الشهيد.

نظر إلى الجمع نظرة مفهومة ببدء الصلاة.

أعطاهم ظهره ورفع يده، وقال: الله أكـ.

ولكن صوتًا قاطعه قائلاً: تنحَّ يا عمي، فأنا من سيصلّي عليه.

نظر جعفر إلى الخلف ليجد صبيًّا لا يتجاوز السبعة أعوام.

قال: ومَن تكون أنت؟

قال: أنا «محمد» بن عبد الله بن الحسن العسكري، ابن أخيك.

لحظة من الدهشة أصابت جعفرًا، ثم استعاد وعيه سريعًا، وقال: أخي لم يترك مولودًا.

قال: بل إنه قد ترك ولدًا وهو أنا، واليوم أنبئ أبا الحسن بعدد الدنانير ودافعيها.

قالها وهو ينظر إلى الفتى حامل النقود في ابتسامة متبادلة، فأخبره بما كان يريد.

فقبّل الفتى يده في محبة بالغة، واجتمع الجمع يقبّلون يده، ويبايعونه

حتى شعر جعفر بالخطر، فتركهم يصلّون على أخيه، وخرج يبحث عن الخليفة؛ ليخبره بالأمر.

عندما علم الخليفة بما حدث أمر جنوده بالبحث عنه، فالدولة لم تسمح بإمام آخر يحمّس الجماهير الغاضبة على السلطان.

مرّت دقائق حتى وصل الجند إلى المسجد يبحثون عنه، ولكن الأمر المحير الذي لم يفهموه هو أن الإمام الجديد قد اختفى إلى الأبد.

يقال عند المعتقد الشيعي إنه قد وجد ثغرة ما عبر منها إلى آخر الزمان؛ ليقتل الدجّال الذي حذر الرسول -عليه الصلاة والسلام- منه، ويقال: إنه قد أخفى نفسه في جبل ما حتى يأذن له الله بالخروج.

ويقال: إن بعض الأجانب قد أخذوه معهم إلى المستقبل.

ولكن يظل أمر اختفائه لغزًا طالما بحث عنه خليفة وراء آخر.

***

كان المشهد مهيبًا فعلاً، جو المشرحة القاتم بصحبة بعض رجال الشرطة ورجال المشرحة، كان «محمد» يعيش الآن الأجواء نفسها، هو يتوقع صورة «ساندي» التي سكنت كل نواة في تكوينه، الوحيدة التي كانت تفهم إيماءاته من أول نظرة.

يا رب.

قالها «محمد» بصوت مسموع، أشار الضابط إلى الجمع بأن يفسحوا؛ ليتجه «محمد» إلى ثلاجة المشرحة، يا له من ضغط عصبي اهتزت له

مفاصل «محمد»! إضاءة خافتة تأتي من مصباح واهن معلق بالسقف تجعل دائرة الضوء مرعبة، هو يتمنى الآن في قرارة نفسه ألا تكون هي، ولكن يتمنى انتهاء هذه اللحظات العصيبة بسرعة، فهو الآن يتصبب عرقًا باردًا ينمُّ عن هبوط بالدورة الدموية، حاله يرثى لها فعلاً، اتجه «محمد» إلى المكان المنشود، ثلاجة الموتى، يقترب «محمد» ببطء، تتصاعد أنفاسه، وقلبه قارب على التوقف، وضع يده المرتجفة، واختلس النظرات إلى الحضور، هل ابتسم الضابط؟ أم أن عقله قد أوشك على الجنون؟ هل نظر الممرض إلى الطبيب وكتم ضحكه؟ لا يعرف، ليست من اهتماماته الآن أن يسجل ردود فعل مَن حوله، نظر «محمد» نظرة أخيرة إلى الملاءة ثم أزاحها بحركة واحدة، لحظة صمت.

ما هذا السخف؟

قالها «محمد» بصوت عالٍ، فهو لم يجد إلا بعض الأكياس التي تراصت لتكوِّن شكل جسد امرأة من حيث كيسان في المقدمة وكيس كبير بالمنتصف، أجفل «محمد» على صوت ضحكة، واستشعر أنفاس شخص ما يقول في صوت رخيم:

أهلا بك معنا سيدي.

التفت وراءه فوجد الضابط في ظهره، ليس بينه وبين «محمد» إلا بضعة سنتيمترات، من هول المفاجأة لم يرد «محمد»، بل ظل صامتًا، فجأة همَّ «محمد» بقول شيء ما، فأخرسه الضابط بأصبعه، وأخرج عصا

سوداء قصيرة من النوع الذي يستخدمه العساكر في فض الشغب، وقال: «آسف يا سيدي على ما سأفعل، ولكني مضطر»، ورفع العصا، ثم همَّ بها على رأس «محمد»، فتلاشت الدنيا من حوله إلا من ضوء المصباح الواهن، ثم تلاشى.

القتيل

التفت «يحيى» وهو غارق في دمه إلى الصوت الذي تكلم ويريد الدفع مقابل تحريره، مع أنه في قرارة نفسه يريد أن يقتل حتى يهرب من هذا الزمن، يريد الرجوع إلى منزله، إلى سريره، إلى كتبه ونظارته، وكوب الشاي في الشرفة ليلاً، دقق «يحيى» النظر في وجه مَن يتكلم، كان مكحول العينين أسمر اللون ملتحيًا مثل سائر القوم هنا، يزيد عليه أنه لا يشبه الكثير هنا، فقد كان نحيلاً، قمحي البشرة قصير القامة، كان «يحيى» متأكدًا أنه قد رآه من قبل، ولكن أين؟ هل هو أحد الصحابة هل هو يشبه أحد أصدقائه؟ هو على حافة الجنون ولكن ليس إلى هذا الحد، فمرحلة الجنون لم يصل إليها بعد، ما زال في وعيه، ما زال يتذكر حياته، حاول أن يتذكر من كان يحرر العبيد في سنين الإسلام الأولى، هل يكون هذا الرجل أبا بكر الصِّدِّيق؟ لا، هذا ليس بأعرابي، هو يتعرف على شكلهم بسهولة، قاطع أفكاره أبو جهل، الذي قال بسخرية: ماذا تريد من هذا العبد أيها الراهب؟ فأنت لا تتبع «محمدًا» ولا تحرر عبيده.

قال الراهب:

لقد أعجبني يا أبا الحكم، وسأدفع ما تريد.

سآخذ ٤٠ قطعة ذهبية يا يوحنا.

قاطعه «يحيى»:

أريد أن أمووووت، اتركوني أموت.

التفت إلى أبي جهل:

اقتلني يا هذا أم أنك كالنساء تخاف من منظر الدماء؟

التفت إليه أبو جهل بالسوط وضربه عدة ضربات، وهو يقول:

ها قد بدأ يهرطق بلغته شبيهة العربية، هو لك فقد فرغت منه.

فتح الراهب يوحنا كيسه ورمى لأبي جهل بعض العملات الذهبية، وأخذ «يحيى» من السلسلة وابتعد عن المشهد، كان «يحيى» يحاول التعرف على ملامحه، وفي الوقت نفسه يسأله مَن تكون؟ ولكن الراهب يلتزم الصمت، ابتعد به إلى منطقة وعرة حتى أصبحوا وحدهم، مكان ناء وخالٍ حتى من الطيور الجارحة، أخرج الراهب قربة بها ماء وأعطاها إلى يحيى.

اشرب حتى ترتوي.

أنت رجل طيب، من أنت؟

هنا، كشف الراهب عن غطاء رأسه الأسود، ونظر إلى يحيى.

ألا تعرفني يا يحيى؟

تأهب «يحيى» إلى الصوت المشابه، والوجه المشابه، إلى الوجنة

البارزة وآثار العوينات التي لم يخلعها طيلة عمره، تأمل جسده النحيل، ازداد دهشة على دهشته حتى صاح يوحنا:

بالتأكيد تعرفني يا يحيى، لقد رأيتني في كل لحظات حياتك، في المرآة وأنت تحلق لحيتك، على صفحات المياه، في الصور الفوتوغرافية، سمعت صوتي في كل لحظة كنت تتحدث فيها، أنا هو أنت يا يحيى.

قال «يحيى» من دون أي دهشة:

وكيف ثار عليك الزمن وكبرت بهذه الطريقة؟ وماذا تفعل هنا؟

عندما غرقت مع جنود الفرعون، أنا لم أغرق؛ بل هربت مع بني إسرائيل، تهت عنهم خمسة عشر عامًا حتى قتلني من يسمى «شمعون» كبيرهم؛ لأنني تطاولت على معتقداتهم وأحببت امرأة.

قاطعه «يحيى»:

أحببت؟

نعم أحببت أخته، ولأنني كنت غريبًا ولست من دمائهم قتلني، وجئت هنا في عام الفيل على أني تاجر دمشقي نصراني، واندمجت.

هناك نقطة لا أفهمها، لماذا لم تغرق؟ هل من الممكن أن يتغير قراري وتفكيري؟

إذا عشتَ موقفًا ما في حياتك ألف مرة، سيغدو تصرفك وقتها غريبًا في كل مرة تعيد فيها الموقف.

وهل عشت هنا كثيرًا؟ ولماذا هذا الزمن بالذات؟

مللت القتل، وهذا الزمن يحترمونني فيه كما رأيت، وأنت إذا قررت أن تمل السفر من دون معرفة ستعيش هنا أيضًا.

وهذا قراري أنا أيضًا، سأعيش هنا معك.

ألا تريد أن تعرف لماذا نحن نقتل؟

لا لقد تعبت القتل، سأستريح هنا.

نظر له يوحنا بابتسامة، وأخرج سكينًا مسنونًا وضرب بها قلب يحيى، نظر له «يحيى» نظرة دهشة، وقال له: لماذا؟

يجب أن نرجع إلى حياتنا السابقة، عودتك تعني عودتي، لا تكرهني لفعلتي هذه فأنا هو أنت، ونصيحتي لك هي ألا تحب أنثى من زمن غير زمنك، وحاول أن تقابله.

صرخ «يحيى»:

أقابل مَن؟

ذو العمامة الزرقاء.

خارت قدما «يحيى» تحته، حتى أظلمت الدنيا من حوله.

ظلام.. ضوء.. موجة.. ارتطام.

***

أفاق «يحيى» على موجة غضب، مصيره الذي لا يعرف ملامحه، إلى جانب دهشته من مقابلة نفسه، هو في كابوس مزعج، نعم هو كابوس،

أدرك «يحيى» أن الزمن قد تغير، هناك مبانٍ تراثها إسلامي، هناك تجار وأناس ومعاملات تجارية، وأحد ما يغنيٍ: «قل للمليحة بالخمار الأسود»، واضح أنه بائع يروج لخمائره بالغناء، تذكر «يحيى» أنه بملابسه الداخلية، فتباطأت خطواته منسحبًا حتى وجد أحد المحال، استغل انشغال صاحب المحل بأحد الزبائن، وخطف منه رداء وهرب، ووراءه صرخ البائع:

أنت يا هذا، إنه لص أمسكوا به.

ظل يجري حتى سند ظهره على جدار مسجد وارتدى العباءة سريعًا، وسار طبيعيًّا حتى مر من جانبه الجمع الذي يبحث عنه، في أي عصر هو؟ هل هو الفاطمي؟ أم المماليك؟ هل وصل الصليبيون إلى أرض مصر؟ هل دخل التتار؟ ظل يتمشى في هذه السوق حتى أوقفه الحرس الذين انتشروا في السوق بشكل مفاجئ، وخرج منادٍ من مكان ما قائلاً: «اسمعوا وعوا، الأميرة العبّاسة أخت عظيمنا وخليفتنا هارون الرشيد -أطال الله عمره- ستعبر من السوق الآن، الكل يميل احترامًا وتبجيلاً، الكل يركع لعظمة مولاتنا، مَن ينظر فرقبته هي الفداء، اسمعوا وعوا»، في دقيقتين الكل سجد على الأرض في محاولة لتعظيمها، أما «يحيى» غير العابئ بمصيره فقرر أن ينظر إليها، مرت عربة أمامها ٨ خيول، مطعمة بالذهب، ووراءها حرس قدرهم بالأربعين أو يزيد، نظر «يحيى» إلى العربة حتى رآها، ما هذا الجمال؟ ما هذه العيون؟ وما هذا البياض والجسد؟

«يا الله على جمالها وأنوثتها».

قالها يحيى.

التقت عيونهما في لحظة مرّت كالدهر، توقف فيها الزمن حتى كاد يصرخ قائلاً: «أنا بحبك»، وليكن ما يكون، فجأة، توقفت العربة، تقدم ٤ حراس تجاه رأسه ليطيحوا به؛ لأنه نظر، رجع «يحيى» للوراء قائلاً في نفسه: «مش هموت إلا أما أشوفها وأتعرف عليها، دي أحلى واحدة شفتها في حياتي»، حاول الرجوع إلى الخلف حتى سمع صوت خادمة ما تخرج من العربة الملكية وتقول:

اتركه يا «محمود»، فإن الأميرة تريد أن تراه.

تقدم «يحيى» من بين جموع الساجدين ومقدمي فروض الولاء والطاعة قاصدًا العربة الملكية، التي طالما رآها في القلعة والمتاحف تحت اسم «سيارة من العصر العباسي الثاني، كانت تقل حاشية الخليفة والطبقات العليا»، كان في هذه اللحظة يحاول تذكر أي معلومات عن هذا العصر، فقد كان يدرسه في الثانوية؛ لكن شتان بين كتب الوزارة والتاريخ الحقيقي، تقدم إلى العربة، كان لا يعرف ماذا يفعل، فقال على عجل: «مولاتي» وثنى ركبتيه كما كانت تفعل الأميرات في أفلام ديزني، صوت قهقه أنثوية:

هاهاهاها، من أنت أيها الظريف؟

كانت ترتدى شيئًا يشبه البرقع، ولكنه مرصع بالألماس، رد قائلاً:

امممممم أنا جعفر.

جعفر البرمكي؟ أنا أعرف عائلتك.

برمكي؟ OK أنا البرمكي.

ماذا؟ ما هذه اللكنة؟ ما معنى OK؟

لا تؤاخذيني يا مولاتي فأنا شاعر وأعرف الكثير من اللكنات واللغات، تريدين أن أحادثك اللغة الإنجليزية؟

ماذا؟ أهي لغة أيضًا؟ دعك من هذا واصعد، أريدك أن تقابل أخي فقد أعجبت بك، أنا أحب الشعر كثيرًا.

صعد «يحيى» إلى العربة على عَجَل، تحرك الموكب وسط الجموع، وأصوات طرق حوافر أحصنة الحرس، ووسط الرءوس المنحنية تعظيمًا، حتى ابتعدنا، بدأت هي بالكلام كاشفة عن وجهها: «أريد أن أسمع من شِعرك».

رأى هو جمالها الصارخ وعينيها المكحلتين، وبياض وجهها المستنير، فقال دون أن يعبأ برد فعلها:

بحياتك يا ولدى امرأة عيناها سبحان المعبود

فمها مرسوم كالعنقود

ضحكتها أنغام وورود

والشعر الغجري المجنون يسافر في كل الدنيا

قد تغدو امرأة يا ولدي يهواها القلب هي الدنيا

لكن سماءك ممطرة وطريقك مسدود مسدود

كانت هائمة في الكلمات، ولكن عند هذا الحد قالت مقاطعة «يحيى» وأشعاره:

لما كل هذا الحزن يا جعفر؟

التزم «يحيى» بالصمت ولم يرد، ظل هائمًا وهو يفكر في الزواج منها والبقاء في هذا الزمن، على الرغم من أنه قابلها الآن فقط.

يبدو أنك ستحّل ضيفًا في قصرنا المتواضع.

ابتسم وقال: يا له مِن شرف سأناله، وعدًا مني بأني سأكون عند حسن الظن.

كانت ساحرة بمعنى الكلمة، حتى صوتها الساحر وإيماءاتها.

هي الجميلة التي تسحر مَن يراها.

هي التي يسيل اللعاب عندما تبتسم أمامك.

هي التي قد يقطع يده متناسيًا آلامًا إذا رآها.

هي الحياة.. هي نبضات القلب.

هي الموت والحياة معًا.

هي الأمل.

هي الشقاء والعمل.

هي كل لون يدركه العقل، كل رائحة تحبها شعيرات الأنف.

هي المخدر الذي ينسيني همومي.

هي العبّاسة.

وصلت العربة إلى قصر عظيم يحفه الحراس من جميع الجهات، قصر يشبه ما كان يرسمه رسامو «ديزني» لقصر «علاء الدين»، دخل بعد أن سمحت له الأميرة بذلك وأجلسته وسط حاشية قمة في الروعة، في ما بين نافورة مذهبة وتماثيل ولوحات، وحاشية من الحرير.

جلس حتى أقبل عليه رجل يرتدي زيًّا ملكيًّا، ووراءه العبَّاسة، عندما خطت قدماه أرض القصر، صرخ منادٍ: «عظمة خليفتنا، هارون الرشيد»، هب «يحيى» من مقعده وقبَّل يده، كان رجلاً في الخمسين أو أكثر، وقورًا وهادئ الطباع، ابتسامة لا تمحى من على وجهه، صوت عميق يكاد يهز بداخلك مشاعرك كلها.

قال في نفسه: «مش شبه نور الشريف يعني، وابتسم على الرغم من احتفاظه بالهدوء الخارجي».

همست العباسة في أذنه بشيء ما، فنظر إلى يحيى، وقال:

إذن أنت جعفر، من البرامكة، ولكني أعرف عنهم أنهم أقوياء البنية، هل أنت ابنهم غير الشرعي؟

كانت دعابة، وكان على «يحيى» أن يردها، فقال:

لا أنا برمكي الاسم فقط، ولكن هيئتي من عائلة أخرى.

ضحك الخليفة في وقار، وقتها عرف «يحيى» أنه سيعيش في القصر، فمن المعروف أن هارون الرشيد كان يحب العلم والشعر، أهداه هارون حجرة بفناء كبير في القصر، وأهدى البرامكة على صيت جعفر أموالاً ومناصب وتجارة، هم لم ينكروه لما به من استفادة، عرف «يحيى» أن حياته ستغدو أشجارًا من الورود، سيحيا كالملوك في هذا العصر، ويجب عليه أن يحافظ على هذا الملك أقصى فترة في حياته، وليتناسَ مشاكله لبرهة.

***

مرت عشرة أعوام كان «يحيى» يعيش كالملوك، جو عام من الصوفية الساحرة؛ حيث روائح الأبخرة الطيبة والموسيقى، يجالس العلماء والشعراء يستفيد ويفيد، تعلّم الكثير من علوم الفلك والكيمياء والفيزياء التي يعشقها، آه يا إلهي لكم نحن متخلّفون في علمنا! فهؤلاء قد وصلوا إلى ما لم نصل إليه، قابل «الفراهيدي» بلحيته البيضاء، وأحب جدًّا إلقاءه للشعر، جالس الحسن بن الهيثم وتعلم منه قوانين علمية حتى هو في هندسة لم يكن يعرفها من قبل.

كانت العبّاسة تعشق مجالسة «يحيى» وكانت تترجى أخاها؛ ليزوجها له حتى تتسنى لها مجالسته بلا أي أمر تشوبه شبهة ما، «الرشيد» قد قرر أن يزوجه من أخته العباسة صوريًّا حتى يتيح لها مجالسته بين الشعراء والأدباء، كان هو قد نسي كل رحلاته وتطبّع على المكان، أحبه الكل، ونصبه هارون قائدًا على كتيبة القصر والحرس الملكي، وكان هو

يتذكر اسم البرامكة، ولا يعلم أين سمعه من قبل، طال شَعره، وابيضت شعيرات مقدمة رأسه، وكبرت عضلاته فأصبح قويًّا، وصحته فاقت كل التوقعات، كان بالفعل جديرًا بالمنصب الذي أهداه له «الرشيد»، أصبح جزءًا من القصر الملكي، يحب العباسة وجمالها، يقول فيها الأشعار ويختلس النظرات إليها؛ لتبتسم بخجل وترجع إلى الحرملك، كان في الجنة بالفعل، مقام رفيع، حب الناس والحاكم، حبيبته التي لاقاها أخيرًا في زمن ما، حياة رغدة، يا لها من جنة، لكم أحبها وتمنى أن يعيش معها العمر؛ لتصيبه الشيخوخة ويموت في حضنها، حتى الشيخوخة لن تؤثر في جمال كهذا، يا إلهى لكم عشقها، عشق أنفاسها، إيماءاتها، عينيها التي تلقى السهام لتصيب قلبه، نظرات الحب التي تلقيها عليه، تحوّله إلى وحش كاسر مستعد أن يقتل حتى تبتسم، يراها تسير مع جواريها، فيتمنى لو كان خفًّا من خُفَّيها ليتسنى له احتضان قدمها الألماسية، اسمها فقط كان كفيلاً بأن يهدئ روعه حتى ولو كان في حالة هياج عصبي تام، كان فعليًّا قد نسي أمه ومنزله، نسي موته المتكرر وأصله، نسي أنه في زمن غير زمنه، هذا بالتأكيد الزمن الصحيح الذي يناسبه، فليذهب الكل إلى الجحيم، يا له من صفاء ونعيم يعيش بهّ يتكلم بلغتهم، يملك قلب أجمل امرأة في التاريخ، منصب مرموق وعلوم اختزنت بداخل عقله، حبيبة تعشقه، هل سيزول هذا؟ لا أظن، حتى جاء يوم مشئوم، كان هو في حجرته، وكانت العباسة في الغرفة المجاورة، اشتاق إلى مجالستها، وإلى سماع صوتها.

يا ليته في زمنه الآن، لكان يحادثها في الهاتف الجوال أو حادثها على

مواقع التواصل الاجتماعي، ولكن لا سبيل إلا زيارتها، فطرق بابها، فتحت العباسة واستجابت إلى ندائه، من الواضح أنها أيضًا في اشتياق، جلسا في الشرفة المطلة على أبواب القصر، كانا يتحدثان كعادتهما عن أمور الحياة، والعلوم الحديثة بالنسبة إلى العصر العباسي، هو كان قد صارحها بحقيقته، وهي تقبلت الأمر بشكل غريب.

كان يحكي لها في الغالب عن أمور المستقبل، وهي كانت تطلق عليه «القتيل»، كانت تمر الأيـام، وهـو يحكي لها عـن الهواتف والتلفاز والحواسيب، فتلتمع عيناها بشغف، وتقول: «ما هذا الجنون؟ إلى أي مدى وصل بك الجنون لتقول هذا؟ هل سيطير الناس كالذباب والطيور في آخر الزمان؟»، فيرد هو مبتسمًا: نعم يا مليكتي، سيطيرون فيما يشبه الكابينة الخشبية، شيء يشبه السفن، ولكن يطير، يجوب المدن، فنستطيع أن نصل الصين في ساعات معدودة، فتشهق هي من هول المعلومات.

آه يا إلهي كم أنت محظوظ!.

فيقول لها:

أحبك يا عباستي.

تبتسم في حياء:

وأنا أيضًا أحبك.

وقرر على الرغم من خجله المعهود أن يقوم بحركة جريئة، كان يريد

أن يشعرها بحبّه، وفي الوقت نفسه يذوق رحيق العشق، نظر لها بحنان واقترب ببطء، وأهداها قُبلة بطيئة قُوبلت بالرفض في بادئ الأمر حتى أغمضا أعينهما وتاهت عقولهما في رحيق الحب، آه يا له من سحر! قيس كان له كل الحق في أن ينتحر ويجن، الحب بالفعل هو نوع من أنواع السحر القديم، يا ليت هذه الثواني تستمر إلى الأبد، فنتحول إلى تمثال واحد يقبل الآخر من شفتيه، فلنظل هكذا حتى انتهاء العالم، حتى طلوع الشمس من مغربها، ستكونين زوجتي (صاح يحيى)، ابتسمت بحنان ووافقته، وقالت إنها ستعرض على أخيها الأمر، غدًا في الصباح الباكر، كان يتمتم بكلمات أغنية «أم كلثوم»: «أغدًا ألقااااك.. يا خوف فؤادي من غد»، وهي تبتسم وتمسح بكفيها الرقيقتين على جبينه، وكأنه كان يشعر بخوف قلبه من غد، كأنه كان يستشعر بالخوف من المجهول، كأنه يعلم الغيب أو أكثر، كانت هناك عين أخرى تراهما، أحد البصّاصين رآهما وهما يُقبِّلان بعضهما وهو يمر مروره المعتاد، ما كان يمر مرور الكرام، لكنه لمح أن البرامكة قد أخذوا أكثر من حقهم، فهم يشاركون الرشيد في حكمه فعليًّا، ثم إنه أحق من هذا الدخيل بالسلطة، فهو ليس من أبناء العباس، فقال في قرارة نفسه: «يا لهذا الخائن وهذه العاهرة، الويل لكما»، أسرع إلى الخليفة وقال له ما رأى وبالغ في الأحداث، فوصف له بطريق غير مباشر لحظات العشق التي مرت عليهما، والخليفة نائم كالبغل في الإسطبل الملكي وأمور الملكية قد أنبتت له قرنين، صمت الرشيد للحظات:

عبّاستي ليست من أهل البغاء، فأنا أعرف أخلاقها.

لكل مقام مقال يا خليفتنا، أنت تعلم أنني بصاصك المخلص، ولم أكذب عليك، إذا أردت أن تنسى الموضوع برمته فهذا رأيك، فأنا كفرد من آل عباس لم أسكت، مع احترامي لك سيدي، ولكن العرش المرصع بالجواهر قد أنساك النخوة العربية، هل تظن أن جدّك العبّاس كان سيرضى بهذا الوضع؟

غلى الدم في عروق الرشيد ثم صاح:

- والله، لأذبحنك أيها الوغد.

- لتذبحن المخلص لوقارك والخائن يعتلي العرش؟

- لك كل الحق، اذهب الآن وسأستدعيك لاحقًا.

ظلّ الرشيد مستيقظًا حتى الصباح يفكر في الأمر ويتوعد الخائن الفقير الذي ائتمنه على داره وحرمة منزله وخانها ويتوعّد بالانتقام، كان «يحيى» نائمًا يبتسم ويفكر في وجه العباسة، يا إلهي كم هي جميلة! يا إلهي كم هي ذكية!! ولكن صوتًا غريبًا لاحظه «يحيى» يخالج أذنيه، صوت صراخ مكتوم، وأصوات جرّ ومقاومة تجري بالحجرة المقابلة لحجرته.

العباسة، صرخ يحيى، وأفاق على جنود يجرونه من شعره الطويل من فراشه إلى سلالم القصر، وبجانبه العباسة، نظر إلى العباسة بتوتر واندهاش، هي كانت منشغلة بالصراخ فلم تلتفت إليه، جروه حتى أقدام الرشيد، نظر الرشيد إليه نظرة هادئة:

للمزيد من الحصريات موقع sa7eralkutub.com
جروب الفيس بوك fb/groups/Sa7er.Elkotob/

بعد أن فتحت لك داري، وأمنتك أنت وعائلتك على أسرتي وأموالي، أبهذا ترد الجميل؟ تخون شرفي وتعاشر أختي؟ وأنتِ يا عباسة، تخونين دينك، تخونين أخاك؟ الموت للخائنين.

أشار إلى السياف وأعطى ظهره إلى الخائنين، حاولت العباسة الصراخ، ولكن صليل السيف كان أسرع، قطع ذراعها ثم أطاح برأسها أمام عينَي يحيى، صرخ «يحيى»:

لاااااااااااااا، حبيبتي، لا لن تموتي لاااااااا، لماذا قتلتها؟

حاول التملص من قيوده؛ ليتجه إلى رقبة الرشيد، قائلاً:

«حرام عليك يا ظالم، إحنا ما عملناش حاجة» قالها بلكنته المصرية.

تذكر «يحيى» اسم البرامكة ولكن متأخرًا، فقد تذكر الأسطورة الشعبية التي تحكي قصة حب أخت الخليفة مع قائد الحرس، وقصة قتل الرشيد للبرامكة كلهم، كان يتذكر هذا ورأسه يتدحرج على الأرض، وقلبه قد ذبح قبل رأسه، ودموعه تغرق الأرض أكثر من الدماء.

ظلام.. ضوء.. موجة.. اصطدام.

***

أفاق «يحيى» على جلبة، وهو يبكي بحرقة على ما تركه وذهب، على قصة حبه الوحيدة التي لم يعرف سواها.

«هتوحشيني يا عباستي».

بكى بكاءً مريرًا وبجانبه جلبة غفيرة، أمامه أبواب مدينة، وخلفه الملايين من الجنود يرتدون رءوس وجلود الحيوانات، وجوههم آسيوية، كلهم يتركون الشارب يتدلى على الوجه، ويصرخون ويقتلون كل ما في طريقهم، كان هو غير عابئ بكل هذا ويبكي، غير عابئ بأنه قد عاد إلى ملابسه الداخلية ونحوله، غير عابئ بشعره الذي عاد كما هو، وعويناته التي عادت، كان النحيب يعلو من بين شفتيه المشققتين كالمرأة التي قُتل زوجها أمامها، حتى تقدم منه أحد ما من داخل المدينة وجره إلى الداخل، قائلاً: «أأنت مجنون؟»، أدخله المدينة وعرفه بنفسه قائلاً: «اهدأ، هل قتل المغول أقاربك؟»، هزّه بقوة وصرخ في وجهه، و«يحيى» لا ينظر له قائلاً: توقف عن البكاء والنحيب كالنساء وحدثني هنا، أنا سيف الدين قطز.

ذو العمامة الزرقاء

أظن أننا لن نجد أي جديد في هذه الصحراء المملة.

قالتها «التون» إلى صديقها «نيكولاس جيفرسون» وهي تلهث وتراقب العمّال سود البشرة الذين يحفرون منذ الصباح في ما سيطلق عليه بعدها «وادي الملوك»، كان الوادي بالفعل قد اكتشف به ما يقارب من الـ٦٣ مقبرة فرعونية حتى عام ٢٠٠٦، حتى كادت تفرغ من مقابرها فلا يوجد إلا الغرف الفارغة، ولكن «نيكولاس» لا يؤمن بالفشل، فقرر أن يكتشف المقبرة الـ٦٤ حتى يسطّر اسمه ويخلده بأسطر من ذهب بين مستكشفي العالم الأثريين، يحلم بأن يكون «كارتر» الجديد، عند إعلامه بوجود فراغات في التربة أسرع خطاه إلى مصر، وبالتحديد في الأقصر؛ ليشاهد بنفسه عمليات التنقيب، وصاحبته صديقته الأوكرانية الأصل «التون» الجميلة، نظر لها وتنهد، وقال:

علينا أن نصبر إذا أردنا أن نجد ما يسرّنا.

نفخت الهواء في ملل.

آاه، ألا توجد أي وسائل تسلية هنا؟

ابتعدت قليلاً عن حبيبها «الشارد» دائمًا التي بالفعل قد بدأت تمل

صحبته، ظلت تردد أغنية ما بالأوكرانية وهي تركل حبّات الرمال في ملل، ركلة ثم ركلة ثم ركله و..

آاااااه..

التفت نيكولاس سريعًا فوجد حبيبته تصرخ في ألم، ركض سريعًا في اتجاهها ليرى ما أصابها وحوله العمال، عندما وصل وسألها، قالت: «شيء برز فجأة من داخل الرمال وأصاب أصابعي»، وظلّت تبكي، نظر إلى أصابعها التي تورمت.

يا إلهي يا لها من إصابة!

ونظر إلى الشيء البارز.

إنها حلقة، وكأنها مقبض لباب ما.

ركع على ركبتيه ومسح الرمال بيديه، فإذا به باب بالفعل.

استغرب قليلاً من كنه هذا الباب الحديدي، فالفراعنة لم يصمموا أبوابًا حديدية من قبل.

قالت «التون»:

اترك هذه الأشياء وساعدني، أنا أحتضر هنا، أووووه ألا تهتم بي مطلقًا؟

كان مشغولاً بمحاولة فتح هذا الباب وعيناه تلتمعان بالاستكشاف الجديد، يتوقع أن هذا الباب لم يكتشفه أحد من قبل نظرًا لقدمه، ساعده الرجال في دفع الباب الحديدي، وحاولوا كثيرًا حتى فتحه؛

ليكشف عن درجات تؤدي إلى الداخل، نظر نظرة سريعة بين الرجال، وقال لهم بالعربية: «هيا بنا»، تركوا «التون» وحيدة ومعها عامل فقط يحرسها، وصاحبه الباقي إلى الداخل، مرّت ساعات وهم بالداخل، وربما كانت «التون» تسب «نيكولاس»، وتلعن اليوم الذي قررت أن تسافر معه إلى هذه البلدة المملة، وفجأة ظهرت عاصفة رملية تخرج من الباب، تخرج بطريقة غريبة أفقية، جعلت قلبها يخفق رعبًا حتى كادت تقتل وقتها، ومن داخل العاصفة وجدت رجالاً يطيرون في كل أنحاء المقبرة، حتى رأت «نيكولاس» يطير بجانبها ليستقر غارقًا في دمائه يحتضر، تعكزت وحاولت أن تدوس على رجليها في عذاب حتى وصلت إليه، وقالت وسط البكاء: ماذا حدث يا حبيبي؟

قال قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة:

جيوش الرب، جيوش الرب.

فتح «محمد» عينيه على مشهد يشوبه السواد، يداه مكبّلتان بطريقة غريبة، وفمه أيضًا مكتوم، أشياء تتحرك حوله لا يراها، ولكن في حركاتها تشبه الكلاب، هي ليست كلابًا بالمعنى الحرفي فهي أصغر وأعرض بكثير، ويهمهمون بأصوات غريبة، ولكن عقله صور له صورة كلب؛ لأنها الأقرب إلى ذاكرته، حاول أن يتخلّص من قيوده بلا فائدة، تذكّر أنه يبحث عن «ساندي» حبيبته، فخفق قلبه حزنًا وقلقًا عليها، وظل ينادي «همففففهمففف»، فتذكّر أنه مكتوم، ظل على هذا الوضع لساعات حتى كاد يجنّ، اقتربت منه واحدة من الكائنات وظلّت تعبث في قدميه، فنفر منها وهزها سريعًا حتى سمع صوت قهقهة غريبة تأتي

من تحته.

نظر بتمعّن على الرغم من الضوء الخفيف إلى هذه الكائنات حتى فاجأه وجه أحدهم ينظر له من قرب في ابتسامة، أو أقرب إلى ابتسامة، رأسه يشبه الجمجمة، وجسده مكسو بالشعر، صرخ:

- هف..

- قرّب الكائن أصابعه من فم «محمد» بإشارة منه أن يصمت، ثم قال في صوت غريب: «اسسسكتتتت»، وأضاف:

- أهلاااا بك في جزيييرة الرب، الرررب سيقابلك الآن.

ورفع الكمامة من على فم «محمد»، فشهق «محمد»، وقال:

وما أنتم؟

قال:

أنا الجسّاااااس.

***

«حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ في سَفِينَة بَحْرِيَّة مَعَ ثلاثين رجلاً مِنْ لَخْم وَجُذَامَ، فَلَعِبَ بِهِم الْمَوْجُ شَهْرًا في الْبَحْرِ، ثُمَّ أَرْفَئُوا إِلَى جَزِيرَة في الْبَحْرِ حتى مَغْرِبِ الشَّمْس، فَجَلَسُوا في أَقْرُبَ، فَدَخَلُوا الْجَزِيرَة، فَلَقِيَتْهم دَابَّة أهلبُ كَثِيرُ الشَّعَر، لاَ يَدْرُون مَا قُبُلُهُ مِنْ دُبُرِه مِنْ كَثْرَة الشَّعَر، فَقَالُوا: وَيْلَك مَا أَنْتِ؟ فَقَالَتْ: أَنَا الْجَسَّاسَة. قَالُوا: وَمَا الْجَسَّاسَة؟ قَالَتْ: أَيُّهَا الْقَوْمُ!

انْطَلقُوا إِلَى هذا الرَّجُلِ في الدَّيْر، فإنه إِلَى خَبَركُمْ بالأَشْوَاق. قَالَ لَمَّا سَمَّتْ لَنَا رجلاً فَرِقْنَا مِنْهَا أَنْ تَكُون شَيْطَانَة، قَالَ: فَانْطَلَقْنَا سرَاعًا حتى دَخَلْنَا الدَّيْرَ، فَإِذَا فيه أعظم إِنْسَان رَأَيْنَاه قَطُّ خَلْقًا، وَأَشَدُّهُ وِثَاقًا، مَجْمُوعَة يَدَاه إِلَى عُنُقِهِ، مَا بَين رُكْبَتيه إِلَى كَعْبَيه بِالْحَدِيدِ».

(حديث الرسول عن تميم الداري)

أردف «محمد» يبتلع ريقه، محاولاً ألا يتقيأ من هول المفاجآت التي يستقبلها منذ أن استيقظ من نومه وقت أن اختُطف، يحاول تقبّل الأمر منذ أن فُتحت عيناه، يرى أمامه كائنًا مشعرًا يكلمه، ويتحاور معه، إنه لشيء غريب فعلاً، قال:

- ربّك؟ ومَن هو ربّك؟

لحظة صمت، ثم تحول الصوت إلى شيء يشبه العويل بصوت حاد كاد يثقب طبلة أذنه، حتى إنه ظل يحرّك رأسه يمينًا ويسارًا محاولاً تفادي الصوت.

قالت الجسّاسة:

- ربنا، خالقنا، مسيحنا الذي سيتحرر ويسيطر على العالم، إلهنا.

وظلوا يسيرون بخطوات راقصة غريبة، ويقولون «الرب، الرب»، حتى فلتت من «محمد» ضحكة بصوت عالٍ فكتمها سريعًا، ثم قال:

- أريد أن أراه.

قالوا:

- ستراه وقتما يريد هو.

- هل أنتم مَن خطفتموني؟

- نعم نحن، وظلوا يضحكون.

- ولماذا خطفتموني؟

- لأنك ذو العمامة الزرقاء.

- مَن؟ أتقصد هذه العمامة؟ إنها «آيس كاب»؛ ليداري ندبة عندي في رأسي، ليست عم..

قاطعه صوت غليظ يأتي من جانب كتفه:

- اصصصصصصمت يا ابن علياااااء.

- مَن هذا؟ وكيف عرف اسم أمي؟ ومَن أين يأتي الصوت؟

- اهدأ قليلاً وستعرف كل شيء يا ذا العمامة الزرقاء..

صرخ:

- أنا لست هذا صاحب العمامة الذي تنادونني به منذ أتيت إلى هنا، ومن أنت بالأساس؟

- أنا ربك، أنا المسيح.

التف الجساسون وأمسكوا بالصخرة التي قيّد فيها «محمد» وأزاحوها قليلاً بطريقة دائرية، حتى أصبحت أمام صخرة مشابهة لها، تركه الجسّاسون وأمسكوا الصخرة الأخرى وأزاحوها، فإذ به أمام رجل

عظيم الخلقة، مليء بالعضلات، أعور العين، غريب الهيئة يليق بالمتحولين فعلاً، صاح مكررًا كلماته:

- أنا ربك، أنا المسيح.

قال «محمد»:

- كيف تكون ربي وأنت مكبّل هكذا؟ وكيف لي أن أعرف أنك هو؟

قال المسيح وقسمات وجهه تشع بالكهرباء الاستاتيكية:

- محمد ابن علياء، ابن الحاكم بأمر الله، «محمد» الغريب، حفيد فاطمة الزهراء.

قال الدجّال:

- كنت أراقبك في كل لحظة من لحظات عمرك يا «محمد»، كنت تسترشد بي وأنت لا تدري، أنا من أرسلت في خطف أبيك الحقيقي، وأنا مَن سيخطف والداك.

قاطعه «محمد»:

- أبي الحقيقي؟

- لا تقاطعني وإلا قتلتك الآن.

صمت «محمد»، فأكمل الدجال حديثه:

- أبوك هو الحاكم بأمر الله، حاكم مصر سليل الفاطميين، أنت ولده الشرعي والوريث الحقيقي، راقبتك في كل مراحل عمرك وشبابك،

رأيتك وأنت تبكي عندما فسدت دراجتك، راقبتك وأنت تستذكر دروسك في حجرتك القاتمة، عندما كنت تحاول اللهو بالكرة كنت أراقبك، أرى دعواتك إلى ربك الوهمي؛ لتصبح طبيبًا كمربيك، رأيتك تنظر إلى هذه الفتاة «ساندي»، كما يطلقون عليها، وأنت في جامعتك نظرات إعجاب، وكان لا بد لي أن أجعلها تحبّك، وأن أرشدك مع الوقت إلى أن تأتي لي هنا لأحادثك، نحن هنا بعيدًا عن كل القوانين الفيزيائية والزمنية والكونية، فلا ترتبط بالواقع خارج دائرتك وقيدك، أنت الذي خطفك جنودي والجسّاسون وأتوا بك إلى العصر الحديث، أنت الذي مكتوب عليك إيقافي، وأنا الذي قررت إخفاءك عن والدك الحقيقي.

- أتعني أنني أنا المهدي المنتظر؟

- لا، ولكن أنت قائد جيوشه.

- ولماذا لم تقتلني؟

قال الدجال:

- حاولت بالفعل، الندبة على رأسك هي مَن فِعل جنودي وعبيدي، الرجل الذي حاول إغراقك هو في الواقع خادمي المخلص «شمعون»، وكان من الممكن أن تكتمل وأتحرر بالفعل، ولكن صديقك وحاميك هو مَن أنقذك.

- عبّارة؟!

- أو كما نطلق نحن عليه «القتيل».

القتيل

كان «يحيى» يبكي على قصة حبه التي انتهت، وعلى الحياة التي كان قد اعتاد عليها، وعلى الأصدقاء الذين فقدهم، والاحترام الذي خسره في العصر العباسي، كان ينوح كالكلب الجريح، كان يعلم أن جعفر البرمكي الذي تقمصه سوف يذكره التاريخ على مر الزمان على أنه شهيد الحب، بغداد تتحاكى قصته بالمواويل والأغاني حتى وقتنا هذا، من كان يصدق أن «جعفر» يكون هو يحيى؟ من كان يعرف أن «يحيى» سيؤثر بالتاريخ بهذا الشكل؟ بين بكاء ونحيب، وسهام تطير لتستقر في بوابة القاهرة، تحدث معه سيف الدين قطز قائلاً:

- لماذا تبكي الآن؟ ما قصتك؟

- لن تفهمني مهما حكيت لك.

- اهدأ وقصّ عليَّ ما أصابك ستجدني إن شاء الله من المنصتين.

انتهى «يحيى» من قصته، فقال قطز:

- على الرغم من هذا الجنون الذي تقوله، فإن نبرة صوتك توحي بأنك صادق، يا بني، إنه القدر، مهما تلاعب بنا القدر فلا مهرب منه، من قال لك إنني تمنيت أن أكون قائد جيوش؟ أنا أحب الشعر وكنت أتمنى

أن أكون شاعرًا، ولكن القدر يضعنا فيما لا نتمناه، وعلينا أن نحاول تغييره وتقبله، نحن رجال وخُلقنا لنواجه مصيرنا، ولكن قل لي: هل رأيت «محمدًا» بالفعل؟

اعتلت شفتَي «يحيى» ابتسامة من يقاوم الحزن، وقال:

- لا، رأيت أبا جهل.

داعبه سيف الدين:

- يووووه بئس مَن رأيت يا فتى.

كان سيف الدين قطز هو قائد الجيوش في القاهرة، وكان مقربًا من السلطان، كانت ملامحه جادة وصوته رخيمًا، يوحي لك بأنه فارس خُلق ليكون بطلاً، أكرمه قطز وأخذه إلى القصر رأفة بحاله، وأعطاه ملابس ومأكلاً، ثم أجلسه، واعتذر عن ذهابه للقيام بمهام القيادة، مرّت الأيام، وأصبح «يحيى» من المقربين، وكان ذات يوم يجالس قطز حتى قطع المجلس أشخاص يريدون قطز، ودار حديث بين قطز والرجال، من ملابسهم عرف «يحيى» أنهم كبار الدولة، قال أحدهم:

- إن التتار على مشارفنا يا سيد الفرسان، ووصلني خبر أن مفتاح دمشق أصبح مع هولاكو، لا طاقة لنا بمحاربتهم.

أصوات همهمة غير مفهومة، الكل ينتظر إجابة من قائد الجيوش.

جاء إليهم فارس أصفر الشعر أوروبي الشكل، وصاح:

- والله، لن نستسلم كما فعلت بغداد، الله لن يخلقنا لنستسلم.

رفع قطز سيفه، وقال:

- أوافق على ما قاله بيبرس، سنحارب ومَن لم يأتِ معنا، فالخزي سيكون مصيره إلى الأبد.

التفت قطز إلى «يحيى» الباكي:

- ألا تريد أن تنتقم منهم يا فتى؟

الحرب ليست حربه، وهو يعلم أنهم سينتصرون، ولكن كيف الاستمتاع بعد فقدان حبيبته؟

كان «يحيى» غارقًا في التفكير، يريد أن يتخلص من هذا الماضي وهذه الحياة، فهز رأسه ووافق على خوض الحرب، فجأة، دخل عليهم حارس ووراءه أربعة من المغول، تقدم أحدهم إلى قطز، وفتح رسالة كانت في يده، وقال ما حفظه الكل عن ظهر قلب، المشهد محفوظ؛ لهذا لم أخُض فيه، ولكنه انتهى بتعليق رءوسهم على باب بالقاهرة اسمه زويلة، كان «يحيى» قد رأى الباب من قبل، ولكن ليس بهذه الفخامة والعظمة، مرت الأيام، وألحقه قطز بالجيش، وتم تدريبه على المبارزة والرماية، كان «يحيى» لا يهتم بالتدريبات؛ لأنه كان قائد الجيوش من قبل، اكتسب خبرة لا يعلم عنها الجنود والقادة شيئًا، وخاض حروبًا لا تعد ولا تحصى، هو يريد أن يقتل حتى ينتقل إلى زمن أقرب، يريد أن ينتهي من هذا الكابوس ويرجع إلى مذاكرته، مع أنه يشك في رجاحة عقله وواقعية الأحداث، مرت الأيام، واندهش القادة من قوة «يحيى» وتدريباته على الرغم من أن جسده عاد إلى سابق عهده النحيل، وهذا

أعطاه خفة لا يدركها إلا مَن يبارزه، استعد الكل لمواجهة فيلق المغول، وخرج الجند خارج مصر، وكانت الخطة مذهلة تعتمد على الدهاء أكثر من القوة والعدد، وكانت الملحمة التاريخية في منطقه اسمها عين جالوت، كانت مهمته أن يخرج مع بعض الجنود يبارزون ثم يسحبونهم إلى جبل تكون بقية الجنود فيه بعيدًا عن الأعين، عند دخول المغول إلى الكمين الذي أعد مسبقًا ينقض عليهم باقي الجيش فيقتلونهم، خرج «يحيى» مع فرقة الطليعة حتى النقطة التي تمركز فيها المغول، كان «يحيى» في المقدمة مرتديًا ملابس الجنود وملثمًا يداري وجهه، أخرج سيفه وهمَّ بالمبارزة، كان لا يعبأ بالقتل، فدخل وسط الجنود وكبر «الله أكبر»، وقتل بشجاعة الكثير حتى ذهل جنود المسلمين من شجاعته، تمكن منه أحد الجنود وغرز في رقبته نصل السيف، لحقه آخر بسيف في جانب ظهره، حتى خارت قواه، كان يبتسم وهو ينظر إلى جمع الجنود حتى أظلمت الدنيا من حوله.

ظلام.. ضوء.. موجة.. ارتطام.

***

أفاق «يحيى» في وسط القاهرة التي لم تتغير كثيرًا العصر البائد، ولكن ما زاد عليه أنه سمع الكثير من الجلبة والهرولة وصوت البارود المنفجر، والكل يصيح: «الفرنجة، اهربوا»، حاول «يحيى» أن ينهض من غيبوبته، ولكن رصاص الفرنجة سبقه، وضربوه بالبارود على غفلة قبل حتى أن يعتدل في جلسته، أظلمت الدنيا من حوله، وهو يشهق

قائلاً: «ما هذا السخف؟ أبهذه السرعة؟».

ظلام.. ضوء.. موجة.. ارتطام.

***

أفاق «يحيى» في نفس المكان المميز أمام بوابة القاهرة، ولكن القِدم كان قد غلب عليها، أصوات تداخلت على سمعه حتى استقرت أصوات موسيقى شرقية، وجمع غفير من الناس، شيء يشبه الكرنفالات القديمة، راقصات ونيران وسعادة غامرة، كان يستند على حجر مزين بالألوان كان بجانبه، وكانت حالته رثة، مر عليه أحد الرجال ممن يوزعون ملابس وطعامًا، قائلاً: «افرح يا رجل، الأمير طوسون رجع من الحرب سليمًا»، تذكر «يحيى» اسم الأمير طوسون، ولكن أين؟ ارتدى الملابس التي رماها الرجل إليه، وصاح أحدهم في الناس:

- «اسمعوا وعوا، بمناسبة رجوع أميرنا ابن سلطاننا «محمد» علي، عظيمنا، أنعم الله عليه بالصحة وطول العمر، يدعو «محمد» على سائر المماليك؛ للاحتفال في قلعته الحصينة، وعلى السادة المماليك الحضور في تمام الساعة الثالثة بعد أذان الظهيرة، اسمعوا وعوا».

نعم، فرصته للقتل، مذبحة المماليك الليلة، ولكن كيف سيدخل إلى القصر؟ قالها «يحيى» لنفسه، بحث مطولاً عن وسيلة يذهب بها إلى القلعة حتى رأى عربة ذات ثلاثة أحصنة مربوطة إلى جدار ما، صعد على العربة وفكّ الحبال بغرض سرقتها، وضرب الأحصنة بالسوط باحترافية قاصدًا القلعة التي تتباهى من فوق الجبل للناظرين، ما إن

دخل القلعة حتى أوقفه الحراس، فصاح أحدهم من الخلف: «إنه أحد المماليك فقد رأيت عربته من الخارج»، ابتسم «يحيى» ودخل القلعة، كان هناك ما يقرب من ٦٠٠ شخص كلهم يرتدون ملابس مشابهة لملابسه، يجلسون يستمتعون بوليمة مكونة من الكثير من اللحوم، جلس وسطهم وأكل بشراهة، حتى لا يشك فيه أحد ما، دفعه أحد المماليك ونهره على شراهته، قائلا:

- اهدأ قليلاً واترك لنفسك متنفسًا حتى تعيش، ألم تتذوق اللحم من قبل؟

ثم ضحك من أثر الدعابة، نظر له «يحيى»، وقال:

- امزح كما تريد فستقتل الآن هههههههههههه.

وأكمل التهامه، توجس هذا الرجل خيفة منه وتحولت نظراته إلى نظرات شكّ، حتى صاح أحدهم: «مولانا السلطان «محمد» علي»، صوت الآلات الموسيقية.

ظهر رجل ذو لحية بيضاء، يضحك في شيء من التلطف، ذهب له الكثير من الناس يقبلون يده، وهو يقول:

- «تشكُّرات.. تمام تمام».

أشار إلى الجمع بأن يجلسوا، فالعرض سيبدأ، لاح له الجند وهم يحملون البنادق ويوجهونها إلى المماليك، ضحك «يحيى» بهيستيريا، لكنه لمح الرجل الذي توجس خيفة منه يمتطي حصانه، وفى لحظة قفز من فوق

الأسوار، وابتدأ الهرج، طلقات نيران ورائحة الدماء والبارود تتصاعد، صراخ ودهشة اعتلت وجوه الكل، ما عدا «يحيى».

كان يضحك وهو يتلقى رصاصة في جبينه.

ظلام.. ضوء.. موجة.. ارتطام.

***

صوت قادم من العدم: «اقتربت يا ولدي، ابحث عن جدك الأول، أوقفه لا ترجع من رحلتك».

أفاق «يحيى» بداخل ساحة كبيره مليئة بالمقابر، وكان ظهره يستند على شاهد قبر كتب عليه «الشهيد الملثم قاتل المغول»، وأمامه مقام لأحد الأولياء مكتوب عليه بخط قديم: «شهيد الحب جعفر البرمكي»، جحظت عيناه وهو يقرأ الاسمين، كان قد تأكد لـ«يحيى» أن ما يحدث له حقيقي وواقع يعيشه؛ بل ويؤثر على تاريخ البشرية أيضًا، هو يعبر الزمن بالفعل، بل ويترك أثره أيضًا على التاريخ الذي يعيشه، ما أرَّقه هو هل بقيت جثته على الرغم من اختفائه وظهوره؟ وكيف؟ ولماذا يحدث كل هذا له؟

نظر حوله وقرأ الأسماء على شواهد القبور، «سيدي علي زين العابدين» و«سيدي محمد البندقداري» و«سيدي خالد العلوي» و«سيدي عبد الرحمن السويسي»، من واقع انتشار كلمة «سيدي» على القبور، فهم «يحيى» أنه في منطقة مقامات الأولياء، كتم ضحكه حين علم أن اثنين منهم هو بشخصه، حاول «يحيى» نبش قبر من قبوره؛ ليستكشف جسد

مَن مستلقٍ بالداخل، هل يقابل نفسه؟ عندما انتهى وجد عظامًا متحللة، اندهش وقال: «هل أترك جسدًا كل رحلة أم ماذا»؟ وقرر البحث عمَّن يقتله، إن منطقة قبور الأولياء هي كامنة في القاهرة، وبالتحديد في منطقة السيدة زينب؛ حيث سكن جدوده وآباؤه قبله، كان الليل يخيم على المنازل، ولكن منذ متى والقاهرة تنام؟ سار «يحيى» قليلاً حتى يستكشف ويعرف في أي زمن هو، أخذته قدماه إلى «الجمالية»؛ حيث لمح شابًّا يرتدي العوينات، يحملق في السراب ويمسك قلمه ويحاول الكتابة، صوت صبي عامل في القهوة: «وعندك واحد شاي لنجيب ابن عم محفوظ وصلِّحه» قالها باستهزاء، برقت عينا «يحيى»، خاصة عندما توقفت عربة من عربات نقل البضائع، وترجل منها فتى أسمر نحيل إلى المقهى؛ ليحتضنه أحد ما قائلاً:

- «فينك يا سادات ليك شوقة أمال؟».

«السادات» ونجيب محفوظ على مقهى واحد؟ هل هو في حلم؟ جلس على المقهى حتى أتى الصبي، وقال له: «اللّٰه يسهل لك ياض امشي من هنا بدل ما أنده لك عسكري الدرك»، تذكر «يحيى» أنه بالملابس الداخلية، فقال: «أنا هنا بمارس رياضة الجري»، نظر له الصبي باستعجاب، وقال له: «طب روح البس يا أخينا وارجع تاني».

تركه «يحيى» في استهجان وبحث عن ملابس معلقة على أي حبل، حتى وجد بنطالاً وقميصًا ما زالا مبتلين، أخذهما على عَجَل وارتداهما وعاود أدراجه إلى المقهى الشعبي.

كان وقتها شاب في نصف الثلاثينات يجلس وحوله بعض الشباب، يرتدى القفطان الأزهري وفوقه طربوش عثماني من الذي كان ينتشر في هذا الزمن.

حاول أن يتعرف عليه من هيبته فسمع من يقول:

- «يا مولانا، النقراشي مش هيسكت وهيحل جماعتنا، لازم نعمل حاجة».

نظر له الشاب، وقال:

- «ليس الآن يا مصطفى، القرار في يده أولاً».

تعرف عليه «يحيى» بعد ما نادوه «مولانا»، هو حسن البنا، منشئ جماعة الإخوان الذي تنصل منها في جامعته وقتها، هم يتحدثون عن «النقراشي باشا»، إذن هو في فترة الثلاثينات، كانت تراوده أفكار متسارعة: لماذا في كل مرة يرتحل فيها بالزمن يكون في وقت حدث ما؟ لماذا كل انتقالاته تكون مصاحبة لأحداث أو مشاهير التاريخ؟ ألا يوجد زمن واحد بلا أدنى حدث؟ زمن مستقر؟ تذكر أن عليه أن يُقتل حتى يعبر كالعادة، وعندما رأى «حسن البنّا» وجد غايته، كانت فرصته للقتل، أن ينضم إلى عملية الاغتيال التي بالتأكيد سيفكّرون فيها الآن، أو بعد حين، وسوف يقتله حرس الوزير، اقترب منه «يحيى» ولثم يديه، وقال:

- «السلام عليكم يا مولانا».

نظر له الإمام:

- وعليكم السلام أيها الشاب، مَن أنت؟

- أنا «يحيى» تلميذك من الشرقية.

ابتسم له «حسن»:

-اجلس يا «يحيى».

دار الحوار وتعرف عليه «حسن»، وعرض عليه المبيت عنده في المقر حتى يشرق الصباح، بما أنه غريب عن القاهرة، صبيحة اليوم التالي كان «يحيى» يحاول الانضمام إلى «الجماعة» قبل حظرها، حتى يتسنى له الانضمام إلى عملية الاغتيال، انتظر حسن البنا على المقهى حتى ظهر له شاب، شهق «يحيى» في انبهار عندما تعرّف عليه من شفّته السفلى الكبيرة، إنه «إسماعيل يس» بنفسه، كان ما زال صغيرًا ليس لديه صلعة كما عهده، ويغلب عليه التعب، يبدو أنه كان يركض هاربًا من شيء ما، فأخرج له «يحيى» جنيهًا كاملاً (بقيمة ألف جنيه في زمننا)، كان قد وجدها في ملابسه المسروقة، وقال له: «لا تيأس أيها الشاب فسوف تكون ملكًا يومًا ما»، فرح «إسماعيل يس» جدًّا، وطلب «يحيى» منه أن يلقي مزحة عليه، فقال له: «حشاش كان معاه نص فرنك يريد أن يشتري بها فص أفيون، قابله عسكري الدرك بصفارته، وقال: ماذا تفعل يا صعلوك؟ فرمى الحشّاش النقود التي كان يريد أن يشتري بها الأفيون».

ضحك «يحيى» ضحكة مفتعلة وهو في قرارة نفسه يعلم أنه سيكون ملك الكوميديا يومًا ما، وسلّم عليه وتركه يغادر.

جاء «البنا» إلى المقهى يحيطه ٤ شباب ملتحين، وجلسوا يتحدثون عن نعمة الله بالإسلام وعن أضرار الاحتلال: «يأتون لنا بملك من أصدقاء الإنجليز، ويريدوننا أن نتقبّل الوضع»، مرت الأيام على هذا الحال حتى وثق حسن البنا في «يحيى»، وكان اليوم الموعود، صادر «النقراشي» أموال «الجماعة» وقرر حلها للأبد، غضب الكل من هذا القرار، وتقرر ميعاد اجتماع سرى حضره المقرب من «حسن» فقط، وكان منهم «يحيى»، تعرف «يحيى» في الاجتماع على شاب مندفع اسمه «جمال»، كان ضابطًا صغيرًا في الجيش ومنتميًا إلى «الجماعة» في السر، قرر «حسن» أنه لا سبيل عن الجهاد إلا بالجهاد، وتقرر اغتيال «النقراشي» وبعض أفراد الشرطة الخائنين، ترجى «يحيى» «البنا» للمشاركة حتى وافق على انضمامه، كان معجبًا بحماسه الزائد وحب الشهادة في سبيل القضية، تم الاتفاق على علامة تكمن في مرور عربة نقل بحمار، عندها يتقدم اثنان بالمسدسات ويضربان «النقراشي» ويفران هاربين، تدرب «يحيى» لشهرين حتى جاءت ساعة الصفر، اقترب «يحيى» من قصر «النقراشي»، وهو متخفٍ في زي عسكري بشارب كبير مصطنع، أمسك مسدسه استعدادًا للعملية، كشف نفسه عندما اقترب قبل ساعة الصفر، فشعر الحرس بالخطر وضربوا النار عشوائيًّا فأصيب «يحيى» في قلبه، وأصيب صديقه في قدمه، الذي اقتنص «النقراشي» في جبهته ورقبته، قبل أن يفر مسرعًا على قدم مصابة، أما «يحيى» فباغته النزيف، وتوقف الزمن والحواس حتى أظلمت الدنيا شيئًا فشيئًا، ولكنه بداخله كان يضحك فرحًا من اقتراب زمنه.

ذو العمامة الزرقاء

قال «محمد»:

- ومَن هو القتيل؟

أجاب:

- هو أمر لا يخصّك في شيء، ولكن سأقول لك مَن هو، هو «يحيى، لا يقل أهمية عنك أنت يا «محمد»، هو صديقك «عبّارة» الذي كان يحميك من محاولات قتلك المستمرة، هو الثائر حفيد محرري الذي سيحاول أن يمنعني من الخروج، هو الذي أعطيته من دمائي المقدسة؛ ليكون عابرًا للزمن؛ ليؤثر في التاريخ؛ ليعيش في أجساد أجداده؛ ليحاول أن يصل إليك؛ ليتحد معك حتى يمنعني أنا وعبيدي من الانتشار، ضحك «المسيح» ضحكة سخرية واستهجان، وشاركه الضحك كل الحضور.

فقال «محمد»:

- تحرر مَن سيحاول منعك؟ ما هذا السخف؟!

- قلت سيحاول ولم أقل سينجح، لا بد من وجوده وسوف تعرف لاحقًا.

- وأين هو الآن؟

- ربما هو يعبث مع «كليوباترا»، أو ربما يحتسي القهوة مع «تشرشل»، أو ربما يحاول صفع عمّال الأهرامات، لا أدري، ولكن الجدير بالذكر أن جده الآن يقرأ الطلاسم ليحررني، وعندها لا أنت ولا هو ستقدران على قدراتي، ولم تستطِع منعي يا هذا.

قال «محمد» باستهجان:

- ولكني أعرف «عبّارة» منذ الصغر، كيف يكون هو؟

قال «الدجال»:

- «عبّارة» كان صديقك حتى سن الخامسة عشرة، وأنا قتلته، وأنت قد اختفيت وقتها حتى الجامعة، و«يحيى» قد أخذ مكانه بإصرار وصار صديقك ليحميك، وأنت لم تدرك فرق الشبه بينهما؛ لأن مدة اختفائه والرجوع لك قد تجاوزت السبعة أعوام، وبالتالي شكله قد تغير، على العموم هما كانا يشبهان بعضهما إلى حد كبير، قُل لي:

- هل رأيت أُم «عبّارة» من قبل أو أحدًا ما من أهله؟

استرجع «محمد» ذكرياته:

- في الحقيقة لم تأتِ مناسبة؛ لأذهب إلى بيته من قبل، ولكن انتظر لحظة، كيف يحررك جده الآن؟ وكيف يكون حفيده صديقي؟ ماذا تقول يا هذا؟

- احترم وقاري يا هذا، ولا تحادثني بهذا الأسلوب، على العموم نحن خارج الزمن في محبسي هذا.

حاول «محمد» استيعاب كمّ المعلومات الغريبة التي قالها «الدجّال» له، صمت لبرهة ثم قال: وما مصير «ساندي» يا «دجّال»؟

نظر له للحظة قبل أن يصرخ صرخة مدوية اهتزّت لها الجدران من حوله، وجعلت الجسَّاسين يهرولون في كل اتجاه، وقال بصوته الأجش:

- «أنا المسيييح ولست بدجّالك»، ساد الصمت.

قاطعه «محمد» قائلاً:

- اعتذاراتي لك، ولكني أريد أن أعرف مصيرها.

قال «الدجال»:

- هي لا تعرفك يا «محمد»، أنا من سيطرت عليها ووضعتك في ذاكرتها، إذا أفاقت فلن تعرفك، ولكن لا تقلق، إلا أن أتحرر، ستكون هنا غائبة عن الواقع حتى لا تفكّر لحظة في منعي وإيذائي، أما أنت، فما هي إلا لحظات وسأقتلك كما سأقتل «يحيى».

ضحك ضحكة مدوية جعلت قلب «محمد» يخفق عاليًا، وحاول تدارك الأمر.

«الدجّال» لا يستطيع قتله؛ لأنه مقيد، والجسَّاسة وجنوده لا يقوون على إيذائه.

قال «محمد»:

- وماذا تريد مني الآن يا «مسيح»؟

قال «الدجال»:

- ستتعاون معي، وستكون فردًا مهمًّا بين عبيدي حتى أتحرر، ووقتها سأهب لك «ساندي» وجنّة خاصة بك على أن تعاهدني بعبادتي أنا فقط، وأن تقتل «القتيل».

صمتّ «محمد» قليلاً:

- وكيف ستتحرر؟

- سيحررني «القتيل» في عام الاحتلال، وسأخرج من الجزيرة وقت مرور كوكب الزهرة من أمام الشمس بينها وبين الأرض، في هذا الوقت ستضعف الفجوة وأخرج أنا وعبيدي من الجزيرة ويكون المراد.

- إذن لك ما تريد، ولكن حرِّرني الآن لأنتظرك وأمهد العالم لخروجك.

نظر «الدجال» إلى «الجسَّاسة» نظرة مفهومة جعلتها تقترب من «محمد» وتقرأ بعض الكلمات؛ لتتحرر قيوده وتصحبه من يده خارج الكهف، و«الدجال» يقول: لا تخُن ولا تفكّر حتى في الخيانة وإلا ماتت «ساندي» أمام عينيك ومن بعدها والداك اللذان أعرف أنك تحبّهما.

تذكر «محمد» شيئًا ما:

- صحيح أين والدي الحاكم بأمر الله، هل قُتل؟

سيظهر مع ظهوري وأنت مَن سيرجعه، ولكن سيكون في صفوف الأعداء، اذهب الآن.

كان هو قد نوى أنه لن يساعد هذا الكاذب، ولكنه قرر أن يجاريه حتى

يخطط لإيقافه بالطريقة المثلى، اصطحبته «الجسَّاسة» إلى نقطة معينة خارج الكهف، ثم قالت بصوتها الحاد:

- استعد للرحلة يا ذا العمامة الزرقاء، وضربته على رأسه بشدة فأُغشي عليه.

القتيل

ظلام.. ضوء.. موجة.. ارتطام.

أفاق «يحيى» في مكان غريب جدًّا، شيء يشبه المغارة، وصوت داخل عقله ينادي ويقول: «اقتربت من السر، جدك بالداخل، امنعه من العبث بالزمن وإلا لن ترجع»، علقت الكلمات في ذهنه وهو يفكر أين هو؟ إذا كان جده في الداخل إذن هو في فلسطين ساعة الحرب الآن، ولكن أي مغارة مظلمة هذه؟ توغل قليلاً مقاومًا الغثيان والتعب داخل المغارة التي كانت تضيق عليه شيئًا فشيئًا، وندرة الأكسجين وقلة التهوية تجعله مصابًا بغثيان دائم، حتى لمح نورًا ضعيفًا قادمًا من الداخل، أصوات متداخلة جاءت مع الريح، مما يوحي بحرب تدور على السطح، هو فعلاً في فلسطين، بالتحديد في القدس، اتجه صوب الضوء حتى وجد شابًّا في الثلاثينات يشبهه، يمسك بشمعة يداري عنها الهواء، وعلى كتفه بندقية قديمة ذات نصل حاد كانت من أسلحة الجيش وقتها، ويرتدي الزي العسكري المصري، على كتفه شعار المملكة المصرية، ما كان يفعله جده (الذي تعرف عليه) هو تقليب أوراق، وكتب في شيء يشبه المكتبة القديمة، كان لا يشعر بالوقت، متمركزًا في مكانه يقرأ بنهم، وكان «يحيى» يتابعه، قرر «يحيى» الصمت حتى يعرف ماذا يفعل جده،

استند بظهره إلى الحائط وتابعه، مر وقت طويل حتى ترك جده الملفوفة من يديه وأخرج قطعة من الطبشور ورسم شيئًا على الأرض، ثم طاف حولها، وهو يردد: سيد الهلاك، ملك العالم السفلي، أحررك من تحت أورشليم، انقلني من أشلاء الهيكل، أو لتبقَّ لأبد الفانين، كررها أكثر من مرة بنغمات مختلفة وهو يطوف حول الرسم، حتى حدث شيء جعل «يحيى» ينتفض من مكانه مسرعًا نحو جده.

«ياااحياااااااا، ياااااحياااااا».

كان الصوت عميقًا جدًا، نبرة الصوت كانت مرعبة كزئير الأسود الجائعة في حديقة حيوان الجيزة، التي طالما زارها «يحيى» في صغره مع أسرته التي لا يتذكر منهم أحدًا إلا والدته، وجه أبيه كان قد اندثر ومعه وجوه أقارب والده، الذين لم يرَهم إلا مرة أو مرتين في عام واحد وهو طفل، لم يكن «يحيى» يعرف أخبارًا عن والده، كان كلما سأل والدته عن أبيه تغيرت ملامحها، وقالت: «والدك هجرنا، ده مش أبوك ده الشيطان نفسه، أحسن لك تنساه»، كلمات هزّت وجدان «يحيى» وهو يراقب المشهد المروع الذي يعجز اللسان عن وصفه، كانت المكتبة التي وصل إليها «يحيى» في البدء مظلمة إلا من ضوء شمعة يمسك بها جده، هذا الجندي الذي من الواضح أنه كان يحارب توغل اليهود إلى القدس، في هذه اللحظة المعروف أن الأسلحة التي كانت مع المصريين فاسدة من مخلفات الحرب العالمية الثانية، بنادق وأسلحة نارية ترد الطلقة في صدر كل من يطلقها، كان الجيش المصري وقتها قد توغل في القدس مع الجيش الفلسطيني؛ للتصدي إلى اليهود، وكان

جده كما حكت له أمـه من قبل في الفرقة التي تتصدى من منطقة قديمة جدًّا في المدينة المقدسة، اسمها «حوش الأقصى»، بالقرب من الهيكل المدفون؛ حيث أسرار الأحبار مدفونة مع جثث أنبيائهم، ولكنه اختفى، وشاع أنه قُتل بعد أن تخلص من يهود كُثر، ولم يعثروا على جثته، أو ما تبقى منه، «يحيى» الآن يرقب اللحظة التي سيختفي فيها جده، وسيحاول أولاً منعه، ثم سؤاله عما يحدث، ولماذا هو بالذات؟ صوت نحيب «ياااحيااااااااا.. يااااحيااااااااا»..

عندها انفتحت الرسمة التي كانت على الأرض بالطبشور إلى ما يشبه النور المشع، يشع من خلال الرسمة صاعدًا إلى السماء، إلى أبد لا يراه على الرغم من مكوثهم تحت الأرض، كان يستنير بهذا الإشعاع الذي لا لون له، أو بالأصح يغلب عليه الزرقة، يتابع هذا الكائن الذي من الواضح أنه يتحرر، يخرج من باطن الأرض غير المستوية والصوت ما زال يصرخ: «يااااحيااااااااا.. يااااحيااااااا».

كان «يحيى» قد عقد أمره على مهاجمة جده الذي سكنت حركته واقفًا لا يتحرك، فيما عدا تطاير شعيرات رأسه واقتراب الشعاع المضيء منه، استعد «يحيى» واقترب بهدوء من خلف جده، وبحركة واحدة قفز وحاول أن يزيحه من مكانه إلى ركن المكتبة المظلم، ولكن اندهش «يحيى» مما حدث، التفت له جده بسرعة البرق إليه وهو يقفز، كانت لحظة واحدة، ولكنه رأى كائنًا غريب الشكل، عيناه قد ابيضتا وتشعان ضوءًا يشبه الضوء الذي يخرج من الأرض، جلده قد تحول إلى معدن يشبه الألمونيوم، وعلى وجنتيه ارتسمت ابتسامة شيطانية غريبة،

عندما قفز إليه «يحيى» ارتطم به كما يرتطم بالحائط، ووقع على الأرض يتأوّه، ولكن ما أدهشه أكثر أن جده هو من كان ينادي عليه، وليس هذا الكائن الوليد، حاول أن يكلمه، سأله:

- ماذا تفعل يا جدي؟

ولكن خلت الأصوات إلا من ضحكات مرعبة، تحرك فيها جده ناحية الضوء الذي سكنت حركته، وأخرجت شيئًا يشبه الطفل الوليد، اقترب منه جده، وحمله بين يديه، ووقف في منتصف الدائرة على الأرض، كرر «يحيى» بصوت مرتجف سؤاله:

- ماذا تفعل يا جدي؟ سأقتلك يا جدي، ماذا تفعل؟ أريد أن أفهم.

رد جده بصوت غريب:

- استعدوا يا أهل الزمان إلى سيد الظلام، سيد الهلاك، ها قد وُلد سيد الظلام، وأنت ابنه يا «ياااااحيااااااا».

ظهر الضوء من جديد من تحت قدمَي جده، وكان ينسحب به ببطء إلى باطن الأرض، وقتها أمسك «يحيى» بسكين صدئ ملقى على الأرض، واقترب من جده، وقال:

- سأقتلك.

أشار إليه جده، وقد اختفى نصفه في الضوء، وتناثرت شعيراته على جانبَي وجهه، وشرر الكهرباء تخرج من عينيه اللتين أصبحتا تشعان بالكهرباء كمصباح، حتى إن شعر «يحيى» وقف من كنه الكهرباء

الاستاتيكية، ولكن «يحيى» كان قد سد أذنيه، وعقد العزم على قتله، يجب أن ينتهي من هذا الموقف سريعًا، هرول إليه مسرعًا وهو يشير بالسكين في يديه عاقد العزم على قتله، فجأة، أحس بالدماء على بطنه، وقد اخترقت قطعة من الزجاج جدار بطنه، فبطأت حركته، وأظلمت الدنيا شيئًا فشيئًا إلا من صوت ضحكة رجت جدران المكتبة.

ظلام.. ضوء.. موجة.. ارتطام.

***

استيقظ «يحيى» على سريره وهو يقول: «لأاااااااااااااااااااااااا اا» بصوت عالٍ، فجرت إليه أمه تقول له: «ما لك يا «يحيى» يا ابني سلامتك»، استغرب «يحيى» من المشهد.

- أنا فين؟

أُمه:

- أنت على سريرك يا حبيبي، أجيب لك كباية ميَّه؟

- لا اطلعي برة ثواني، شكلي كنت بحلم.

أفاق «يحيى» مستريحًا من النوم، تثاءب ببطء واستمتاع، معقول كل ده كان كابوس؟!

نظر إلى نفسه في المرآة المعلقة بجانب دولابه، فتيقن أنه يرتدي ملابسه الداخلية، وأن وجهه يكبره بأعوام، وشعره قد زحف قليلاً إلى الوراء، سمع أصواتًا قادمة من الشرفة كأنها هتافات، فخرج إليها

مسرعًا مندهشًا، نظر إلى الشارع فوجد بعض الشباب بكمية كبيرة جدًّا، تسير في مجاميع كالمظاهرة، أمامهم رجال أمن كثيرون يطلقون النيران، ويعلو الهتاف: «الشعب.. يريد.. إسقاط النظام».

فأنا ابن بطنك

وابن بطنك مَن أراد ومَن أقال ومَن أقر ومَن نهى

«هشام الجخ»

كان «يحيى» ينظر بنهم لما يحدث تحت شرفته من أحداث، هم مجموعة من الشباب يرفعون الأعلام والشعارات وبعض الصور للرئيس «مبارك»، عليها علامة «إكس» على الوجه، يعلو الهتاف: «ارحل.. ارحل» و«الشعب يريد إسقاط النظام»، وعلى الجانب الآخر كان هناك أفراد أمن يحملون الأسلحة ويوجهونها في وجه هؤلاء الجموع، وبدأ الضرب الذي استغرب له «يحيى»، ماذا يحدث وفي أي عام هو؟

هل هو ما زال في الماضي؟ لكن ملابس المتظاهرين توحي بالنفي، كان الجو باردًا وهو بملابسه الداخلية، فهرع إلى الداخل وارتدى ملابسه، ثم خرج إلى الصالة، وسأل أمه:

- ماما هو فيه إيه؟

- أنت نسيت يا ابني ولّا إيه ما بقالنا ٣ أيام في الهم ده؟!

- هَمّ إيه يا ماما مش واخد بالي؟!

- المظاهرات يا «يحيى»، و«مبارك» شكله مش هيمشي..

للمزيد من الحصريات موقع sa7eralkutub.com
جروب الفيس بوك fb/groups/Sa7er.Elkotob/

سمع «يحيى» أُمه وازداد دهشة وتوجس خيفة، هو في المستقبل، لكن لماذا عبر زمنه؟ لماذا لم يستقر في ٢٠٠٩ كما كان يحلم من قبل؟ أمسك بجهاز التحكم وشغل التلفاز، فقد كان يريد أن يعلم أكثر عن الأحداث، وأيضًا يريد معرفة تاريخ السنة، كانت القناة الأولى تعرض فيلمًا لـ«إسماعيل يس»، وباقي القنوات الأرضية تعرض برامج لا صلة لها بالأحداث، هل هو يحلم؟ بحث عن محطة إخبارية حتى وصل إلى «الجزيرة»، كانت تعرض بثًّا مباشرًا من ميدان التحرير، وكان مكتظًّا بالناس، وعلى جانب الشاشة صورة لأحد المباني يحترق، وأحد المراسلين يقول:

«مشهد مروع يجتاح العاصمة العجوز؛ حيث انتفض الشعب المصري في ليلة الثامن والعشرين من يناير عام ٢٠١١ حتى يسطر باسمه في كتب التاريخ أحداث الثورة، الجيش يفرض حظر التجوال والأحداث تتزايد في يوم واحد».

«يحيى» كان في حالة من اللاوعي الفكري التي اجتاحت عقله، لماذا يستمر في التقدم؟ هل يجب أن يبحث عن سيد الهلاك ويقتله؟ ومن يكون سيد الهلاك؟ ما هذا الجنون؟ كان «يحيى» قد أخذ القرار بأن يُقتل حتى يعبرِ الزمن علّ وعسى يجد إجابة في زمن آخر، همَّ بالنزول ولكن حاولت أُمه منعه، رد بجملة واحدة:

- «البلد عايزاني يا ماما».

سار بخطوات سريعة قاصدًا ميدان التحرير، كانت الشوارع مغلقة

والشمس تغيب سريعًا، ودبابات الجيش منتشرة في الشوارع، يعلم أنه قد سبق زمنه بأعوام، وعليه أن يكمل مسيرته حتى يصل إلى زمن متقدم، فيفهم ماذا يجري، وصل إلى ميدان التحرير وكانت هناك مسيرة انطلقت بعد خطاب «مبارك» للتلفاز، سار معها مرددًا: «ارحل.. ارحل»، حتى استوقفهم بعض رجال الأمن والبلطجية، هتف بعلو صوته أن يرحل، وكان الحماس مسيطرًا عليه، حتى اقتنصته رصاصة من فوق أحد المباني، وعلى لسانه كان يردد: «الشعب يريد إسقاط النظام»..

ظلام.. ضوء.. موجة.. اصطدام.

صوت يتردد في ذهنه

- جدك حرَّر «سيد الهلاك».

أفاق «يحيى» ببطء في نفس المكان الذي قُتل فيه في «التحرير»، على باب الميدان، ولكن كان المكان قد تغيرت معالمه، فقد كانت كل المباني متحولة لأطلال، مبانٍ محترقة منذ عشرات السنين، وخرائب، ومباني متهدمة، كأن حربًا قد دارت في هذا المكان، العجيب أنه أيقن أنه لا يوجد بشري واحد بجانبه، أو حتى بعيد عنه، المكان خالٍ من الأحياء حتى النباتات، قام «يحيى» على قدميه وتمشَّى علّه يجد أحدًا ما، نظر حوله يتفحص المباني، أليست هذه الخرابة هي المتحف المصري؟ ماذا حدث له؟ ما هذه الأعلام السوداء، «الأوبرا» أصبحت مخلفات، آثار الحريق والخرائب في كل مكان، أعلام غريبة كانت منتشرة على الجدران وكأنها جرافيتي تشبه إلى حد كبير علم الاتحاد السوفيتي،

ولكن بنجوم أكثر، صورة كبيرة معلقة فوق أحد الكباري المهدمة قطعت وحرقت، عليها صورة أحد العواجيز يبتسم، وبقايا وسامة شبابية على ملامحه، كتب تحته بخط عريض: «مرشحكم اللواء أحمد محمد علي خليفة قائدنا المشير عبد الفتاح السيسي رحمه الله»، مَن هؤلاء؟ هو لا يعرف، أكمل مسيرته وهو عاقد العزم على تفقد منزله، كان هو قد اقترب، فقد تعرف على بقايا مئذنة وبعض الأحجار، هذا بلا شك مسجد السيدة زينب، يا الله ما هذا الخراب؟ كان قد تيقن من أنه لا يوجد أي بشر هنا ولا حتى كهرباء، ولا أجهزة تعمل بالكهرباء، وكانت رائحة غريبة تعم الشوارع تشبه الكبريت، دهشة أطاحت بملامحه عندما وصل إلى الخرابة التي كانت منزله، أصبحت كما لو هزتها يد ضخمه، لا حوائط ولا أي شيء، فقط بعض الطوب الملقى فوق بعضه البعض، وبعض الأجهزة التي تغطت بالرمال، بحث حوله عن أي شيء أو أي أحد يعرف منه أي شيء، ولكن المكان كان كالصحراء، حتى الأسفلت تغطى برمال صفراء، لمح ورقًا من جريدة ملفوفة تحت أحد الأكوام، تغلب عليها الصفرة، ولكنها ليست بالقديمة جدًّا، فقد احتفظت باتزانها ولم تتقطع، فردها محاولاً قراءة التاريخ، مكتوب أنها طُبعت سنه ٢٠٤٦، وكانت مليئة بعناوين:

مصر على مشارف الحرب

السوفيت وأوروبا وأمريكا والترك والصين وكوريا والعرب.. إنها الحرب

«واشنطن بوست»: تهديدات الاتحاد السوفيتي الجديد سيتم الرد عليها

بقنبلتين

ارتفاع عدد الضحايا إلى مليون قتيل

الاتحاد الأوروبي يحشد جنوده وهم على الاستعداد للضرب

«داعش» تنتفض

اللواء أحمد محمد علي: مصر انتصرت على إسرائيل والأفغان والترك.. وستنتصر قريبًا على الأمريكان

لا تخافوا من الجسَّاسة

الجسَّاسة تتحد مع أوروبا

أسلحة غريبة الشكل تدمر الإمارات

الاتحاد السوفيتي يهدد أمريكا ويقول: إذا لم تنسحب القوات من البحر المتوسط.. الرد سيكون شنيعًا

«داعش» تهدد بإلقاء قنبلة على الأريزونا

ما هذا الجنون يا «يحيى»؟ هل قامت حرب عالمية ثالثة؟

مَن انتصر؟ مَن بقي؟

السوفيت اتحدوا ثانية؟

ترك الصحيفة وهو كالتائه، يلملم أعضاءه، ويمشي بخطوات تائهة، ظل على هذا الحال حتى وصل إلى منطقة جبل المقطم، ألقى بنظره فوجد أن جبل المقطم أصبح فجوات تشبه الكهوف، وسمع أصواتًا

تشبه البشر، فرح وهرول ناحية الكهوف، وقال بصوت عالٍ:

- هل من أحد هنـاااا؟

لم يرد أحد.

- السلام عليكم.

وجد أن هناك شابًّا قد خرج له، وقال برعب:

- ألا تخاف السير وحدك حتى لا يقتلك عبيد «الدجال»؟

- من أنت؟

- أنا ذو العمامة الزرقاء يا «عبّارة».

***

الفصل الأخير
الدجَّال

- كيف تعرف اسمي يا هذا؟

صاح بها «يحيى» في تحفّز كمن يستعد للمشاجرة، مخاطبًا «محمد» الذي كان قد استعد لمثل هذه الأسئلة، نظر له طويلاً بصمت ثم ابتسم، وقال:

- أهلاً بك أيها القتيل في آخر الزمان.

- قُل لي: كيف تعرفني وإلا قتلتك؟!

ببطء شديد رجع «يحيى» في تحفز إلى الوراء وهو يكور قبضته، ولكن أشار له «محمد»:

- استرِح استرِح أنا لا أريد أن أؤذيك، سأحكي لك كل شيء، ولكن دعني أولاً أعرفك على جيشنا.

- جيشنا؟ أي جيش وأي زمن هذا؟

- تعالَ معي إلى الداخل، لا تندهش فهذا الكهف هو مدخل حجراتنا ومقراتنا السرية، يبدو أنها أول عبور لك؛ لهذا ما زلت لا تتذكر شيئًا، لا تقلق.

اصطحبه «محمد» في توغل إلى داخل الكهف المريب وهو لا يفهم أي شيء مما يحدث، كان الكهف مظلمًا إلا من لسان ضوء يأتي من الداخل يوحي بمخرج ما، من حوله حفريات ورسومات اعتلت الجدران كُتب عليها بعربية واضحة: «جيوشنا ستنتصر، إمضاء القتيل»، اندهش «يحيى» من هذه الرسومات ومن الهواء والمتنفس الذي يأتي من الفراغ، والذي لا يرتبط أبدًا مع كهف ضيق، فقال هامسًا:

- كيف أكون قد كتبت هذا وأنا هنا لأول مرة في حياتي؟

- أنت أتيت هنا آلاف المرات يا «يحيى».

- أنا؟ وكيف لا أتذكر؟

- بالأحرى سوف تأتي إلى هنا عندما تُقتل كعادتك فالماضي بالنسبة لنا هو مستقبلك.

استغرب «يحيى» من هذا المجنون الذي يخاطبه، ولكن كل ما حدث له هو الجنون ذاته، فليس له حق الاندهاش، ساروا نحو النصف ساعة إلى داخل الكهف الذي اتضح أنه لا ينتهي، حتى وقفوا أمام باب حديدي يخترق الجبل، وتسطع منه الأضواء البيضاء التي تجعل الرؤية ناحيتها مستحيلة، عالج «محمد» شيئًا ما في الباب حتى انفتح، ونظر إلى «يحيى» بجانبه، وقال بلهجة مرحة:

-تفضل يا شريكي.

انتظر «يحيى» ثانية ليتأكد أن هذا ليس كمينًا لقتله، فقد سئم القتل

ويريد أن يفهم ما يحدث من ورائه، دخل ومن ورائه «محمد» على ساحة واسعة منيرة بفعل الكهرباء، مما زاد في اندهاشه هو كيف ينيرون كل هذه المساحة في زمن يتوقع فيه أنه لا يوجد سد أو حتى طواحين قائمة على التوليد؟

قال «محمد» كمن حضر الموقف آلاف المرات:

- المولدات من صنع علمائنا، والبترول خزيننا منذ أعوام.

حاول «يحيى» أن يستوعب كل هذا وهو يتقدم في الساحة الواسعة بعكس ما توقع نسبه إلى حجم الكهف حتى أشار له «محمد» بأن يصعد على شيء يشبه المنبر في المساجد، ولكنه عالٍ جدًّا، على هذا فقد توقع «محمد» أن جبل المقطم مفرّغ من الداخل أو تم تفريغه بفعل الرجال هنا، أي أنه مجرد قشرة، صعد و«محمد» من خلفه على سلالم خشبية من الواضح أنها مطعّمة بالذهب، كانت رأسية فاضطر فيها الرجل إلى استخدام قدميه ويديه للصعود، ما إن صعد «يحيى» ونظر، حتى وجد ما لا يستطيع أن يستوعبه عقله الواهن ويصدقه، آلاف بل ملايين من البشر يأتون ويذهبون، منهم من يصنع الأسلحة البيضاء عراة الصدر، ومنهم من يتدرب على المبارزة، ومن يجمع بعض الناس في حلقات تشبه حلقات الأزهر يلقنهم أشياء ليحفظوها، كانت مجموعة غريبة من البشر، ملابسهم وأحجامهم لا يمكن أن تجتمع في عصر واحد أبدًا، هؤلاء مماليك بجلابيبهم الخضراء، وهؤلاء إيطاليون، هذا الجمع الذي يعالج جهازًا غريبًا بدائيًّا بأعينهم الضيقة

وبشرتهم الصفراء هم آسيويون، هؤلاء أوروبيون، هؤلاء فراعنة، هل أرى «عماليق» النبي هود؟ ما هذه الخزعبلات؟

وما هذه الكائنات الصفراء ذات الأعين المشقوقة؟ ومن الذي يطير هناك ولا يندهش من حوله؟ هل هذا «قطز» يلقي عليه التحية؟

اقترب أحد الرجال وكان يلبس معطفًا أبيض إلى «محمد» وصافح «يحيى»، وقال موجهًا كلامه إلى «محمد»:

- هل رأيت آخر اختراعاتي؟ هذا السلاح الفتّاك سوف يساعدكم كثيرًا.

نظر «محمد» إلى يديه فوجد شيئًا يشبه المسدس، ولكن أصفر اللون، أخذ المخترع في هزه، ثم أطلقه باتجاه أحد العماليق، فأطلق كهرباء بشكل أفعواني؛ لتصيب ذراع العملاق، صرخ العملاق، والتفت إلى المخترع، وقال:

- سأقتلك أيها الغبي.

- لا أحد يقدر على قتل ويليام تسلا..

وقهقه ضاحكًا وهو يهرب من أمامهم، كاد «يحيى» يصرخ ليعلن عن جنونه، لولا أن سبقه «محمد» وأمسك بشيء يشبه الميكروفون ويقول في صوت جهوري: «جيشنا العظيم»، وكررها بأكثر من لغة كمن يقدّم مطربًا ما على خشبة المسرح، قال بالعربية أولاً:

- ها قد عاد أهم فرد في جيشنا إلى صفوفنا في الميعاد المرتقب.

وأعادها بأكثر من لغة، وكان في كل مرة يقولها بلغة مختلفة، تهلل مجموعة من البشر لتعبيرها عن السعادة، هنا تقدم «محمد» وقال:

- أنا ذو العمامة الزرقاء، ادعُ قائد كل كتيبة إلى الانضمام إلى حجرة الاجتماعات للترحيب والاتفاق مع «القتيل» والبدء في تنفيذ أولى خطواتنا، اليوم سيكون يوم الملحمة، بقدوم «القتيل» سننتصر على «سيد الهلاك».

هلل الجميع فرحًا بهذا، وترك «محمد» الميكروفون، وأشار له إلى حجرة جانبية، وقال:

- اسبقني إليها وسآتي إليك.

سر الأسرار

«ثُمَّ وَقَفْتُ عَلَى رَمْلِ الْبَحْرِ، فَرَأَيْتُ وَحْشًا طَالِعًا مِنَ الْبَحْرِ لَهُ سبعة رُءُوسٍ وَعشرة قُرُونٍ، وَعَلَى قُرُونِه عشرة تيجَان، وَعَلَى رُءُوسه اسْمُ تَجْدِيفٍ. وَالْوَحْشُ الَّذِي رَأَيْتُهُ كَانَ شِبْهَ نَمِرٍ، وَقَوَائِمُهُ كَقَوَائِمِ دُبٍّ، وَفَمُهُ كَفَمِ أَسَدٍ. وَأَعْطَاه التِّنِّين قُدْرَتَهُ وَعَرْشَهُ وَسُلْطَانًا عَظِيمًا. وَرَأَيْتُ وَاحِدًا مِنْ رُءُوسِه كَأَنَّهُ مَذْبُوحٌ لِلْمَوْتِ، وَجُرْحُهُ الْمُمِيتُ قَدْ شُفِيَ. وَتَعَجَّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ وَرَاءَ الْوَحْشِ، وَسَجَدُوا لِلتِّنِّينِ الَّذِي أعطى السُّلْطَانَ لِلْوَحْشِ، وَسَجَدُوا لِلْوَحْشِ قَائِلِينَ: «مَنْ هُوَ مِثْلُ الْوَحْشِ مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحَارِبَهُ» وَأُعْطِيَ فَمًا يَتَكَلَّمُ بِعَظَائِمَ وَتَجَادِيفَ، وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا أَنْ يَفْعَلَ اثنين وَأربعين شَهْرًا. فَفَتَحَ فَمَهُ بِالتَّجْدِيفِ عَلَى اللهِ، لِيُجَدِّفَ عَلَى اسْمِه، وَعَلَى مَسْكَنِه، وَعَلَى السَّاكِنِينَ فِي السَّمَاءِ. وَأُعْطِيَ أَنْ يَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ الْقِدِّيسِينَ وَيَغْلِبَهُمْ، وَأُعْطِيَ سُلْطَانًا عَلَى كُلِّ قَبِيلَةٍ وَلِسَانٍ وَأُمَّةٍ. فَسَيَسْجُدُ لَهُ جَمِيعُ السَّاكِنِينَ عَلَى الأَرْضِ، الَّذِينَ لَيْسَتْ أَسْمَاؤهم مَكْتُوبَةً مُنْذُ تأسيس الْعَالَمِ فِي سِفْرِ حَيَاةِ الْخَرُوفِ الَّذِي ذُبِحَ. ٩ مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ».

(سفر الرؤيا يوحنا - إصحاح ١٣: ١-٨)

***

- هل تذكرت الآن؟ لقد قصصنا كل ما نعرفه، كل منا إلى الآخر.

- تذكرت كثيرًا من الأحداث، ولكن ما زالت لدي الكثير من الشكوك.

- حتى ذلك الكهف لا أظن أنني رأيته من قبل، ثم كيف لي أن أعرف كل هذه الوجوه؟

- «يحيى»، لا تيأس، إذا حاولت قليلاً ستتذكر الباقي، والآن سنجتمع على المائدة وستتذكر.

***

بدأ «محمد» كلامه قائلاً بالعربية:

• الوقت يداهمنا، يجب أن نتخذ خطوة إيجابية قبل أن يصل إلينا «الدجَّال».

نظر إلى «يحيى» الشارد:

- كثير من الأسئلة في جعبتك أليس كذلك؟

لم يرد عليه «يحيى» ولكن اكتفى بهز رأسه، كان يجلس إلى طاولة عظيمة قديمة الشكل، وحوله يجلس قرابة عشرة رجال مختلفين في هيئاتهم وملابسهم، منهم من يرتدي زيًّا عسكريًّا، ومنهم من يرتدي ملابس عربية قديمة، الطاولة نفسها محفور عليها كتابات بلغة غريبة، كلها نقوش وكتابات جار عليها الزمن، ولكن الخشب لم يتأثر، بل كان متماسكًا بشكل غريب، قال «محمد»:

- في البداية كلنا نعرف العربية هنا، منّا مَن تعلّمها ومنا من كانت لغته الأصلية، ثانيًا: كلنا نعرف «يحيى» القتيل، فقد قابلناه مرتين من قبل.

أومأ الجمع برءوسهم في إشارة إلى الموافقة، نظر «محمد» إلى «يحيى»:

- لكي تفهم ما نحن فيه، يجب أن أحكي لك في البداية مَن نحن؟ ومَن أنت؟ وكيف تُقتل وتعود؟

نظر له «يحيى» نظرة يترجاه أن يكمل حديثه.

- أنا «ذو العمامة الزرقاء» يا «يحيى»، وأنت «القتيل»، ونحن معًا قد جمعنا هذا الجيش منذ أعوام مضت، أنت بالفعل لا تتذكر؛ لأنك لم تقُم بجمعه حتى الآن.

نظرة استغراب إلى «محمد» من «يحيى» وهمَّ بالكلام ولكن أوقفه، وقال: الموضوع صعب شرحه، ولكن أنت عندما تُقتل وتصل إلى نقطة معينة في الزمن، ويصعب عليك قتل «الدجَّال»، تعيد الكرة من أول الزمان ثانية، هي لعنة الدماء المقدّسة، وأنت السبب فيها.

صاح «يحيى»:

- أنا؟

- نعم، فأنت يا «يحيى» كنت بالفعل كل الشخصيات التي أثرت في التاريخ والحقبات بشكل عام، كنت أنت من قتل المغول وهو ملثم، أنت من أحببت «العبّاسة»، أنت من غرقت مع قوم «نوح»، أنت العبد الذي

حررك الراهب في مكة، وأنت حرر «الدجَّال» من تحت القدس وليس جدك، من قابلته ليس جدك إنه أنت، وكان هذا جزءًا من خطتنا، فتحرير «الدجَّال» هو بداية هلاكه على أيدينا هنا.

- ولهذا لم أستطِع قتل نفسي؟

- نعم؛ لأن بقتلك لن يتحرر «الدجَّال».

- إذن الآن عندما أُقتل وأعود سأكون هناك أحرر «الدجَّال».

- لقد تحرر بالفعل منذ قليل، وستتذكر كل ما فعلته الآن عند تحرره، ستتذكر كل تفاصيله؛ بل وسترى نفسك داخل عقلك، أزمنة أنت عشتها بالفعل.

- ومَن تكون أمي؟

- هي ليست والدتك الحقيقية يا «يحيى»، ألم تفهم بعد؟

أومأ «يحيى» برأسه غير مستوعب، فقاطعه «محمد» قائلاً: هي أحد جنود الرب يا «يحيى»، ليست أمك الحقيقية، ألا تستوعب شكلها الأجنبي؟

- ولكن أنا لست يتيمًا حتى أصدقك، لديَّ أُم وأب وأسرة متكاملة، ربما كانت لا تشبهني، ولكن صورة والدي موجودة وهو مطابق لشكلي.

- حسنًا.. أنا أتّفق معك، ولكن قُل لي: أين والدك؟

- توفّي قبل أن أراه.

- لأن والدك هو أنت، أنت يتيم، وقدرك أن تكون أنت القتيل.

صاح «يحيى»:

- ما هذا الهراء؟!

ربت «محمد» على كتفه:

- اهدأ قليلاً فقد أخبرني هو بكل شيء، الجسّاسون خطفوك من المنزل بعد أن حقنوك بالدماء، وهذه الأجنبية من جنود الرب اليهود الذين أقسموا على تنفيذ المخطط بعد السبي البابلي وتفرّق اليهود.

- ولِمَ أنا؟ هل اختاروني عشوائيًّا؟

- لا، النبوءة تقول إن محرره وقاتله يكونان من «آل البيت»، وأنت منهم يا «يحيى».

- ولكن مَن يكون أبي وأمي؟

- أبوك هو الحسن العسكري آخر أئمة «آل البيت»، والدتك هي نرجس بنت شمعون الصفا، من تلاميذ المسيح -عليه السلام- اختفيتَ وقت ولادتك، وعدتَ إلى زمنك بعد وفاة أبيك مباشرة؛ لتعلن عن إمامتك، ثم خطفك الجسَّاسون ثانية عن طريق الثغرة التي كنت قد عرفت سرّها، وأعادوك إلى بيتك في القاهرة مع مربيتك، بعد أن بدأت الدماء تعلن عن نفسها في جسدك، ولهذا نسيت كل هذه الأحداث.

- لحظة واحدة.. أنت لم تكن في المنزل وقت حقني بالدماء، ولا كنت في زمن العبّاسيين، فكيف عرفت هذه التفاصيل الدقيقة؟

- أخبرني «الدجَّال».. فأُمك ما هي إلا من الجنود، ستراها عند الحرب.

تذكر «يحيى» كلمات كانت دائمًا ما تقولها أُمه أمامه:

«ستكون عظيمًا يومًا ما يا يحيى، ستكون مثل جدك، ومثل أبيك».

قال «يحيى» والدموع تملأ عينيه:

- صعب عليَّ فهم هذا ولكن سأجاريك، لماذا لا أموت وأنتهي يا «محمد»؟

- سترجع أو تموت عندما يقتل «الدجَّال» أو ينتصر، أما بالنسبة إلى عدم فنائك إلى الآن، فهو ما أعطاه لك «الدجَّال» بنفسه، هل سألت نفسك لماذا لا يموت «الدجَّال» على الرغم من مرور مئات السنين على تقييده؟

- لم أفكّر في هذا أو لم يشغلني هذا أبدًا.

- الله قد أعطاه خاصية غريبة في دمائه، فدماؤه متجددة مضادة للأكسدة تولد الخلايا وتشغّل قلبه فيدق، وسيدق بلا توقف، إلا أن يأذن الله فتتوقف دقاته؛ بل ولديه سرعة تفكيك وربط لجزيئاته من العدم، كل هذا يقبع في دمه.

- ولماذا هو بالذات؟

حط «محمد» جبهته.

- حكمة ربك، الله قد حذرنا من خطره أكثر من مرة على يد الكثير

من الأنبياء إن لم يكن كلّهم، هو فتنة تصيب البشر ويختبر بها الله قوة الإيمان، كل الأديان حذرت، منه حتى اليهودية، ولكن مع مرور الوقت تحور دوره لدى اليهود، فهم أصبحوا يرونه «المخلص» ويبشّرون به.

أشار «يحيى» بيديه في حيرة:

- ولِمَ أنا بالذات؟

- ألم تفهم بعد؟ أنت محرره يا «يحيى»، المستقبل بالنسبة لك هو ماضٍ بالنسبة له، أنت المختار لهذه المهمة، لهذا خلط دماءك بدمائه المقدّسة لحظة ولادتك من داخل منزل الإمام الذي وُلدت بي، ربما دسّ لك محقنًا ما من قبل أحد الجسَّاسة أو شرّبوك قنينة أو أي شيء، إنهم مقاتلو جنود الرب، كما يطلقون على أنفسهم.

- جنود الرب؟

- نعم، هي جماعة يهودية تشكّلت داخل الهيكل من قِبل الحاخامات، لديهم من العلم ما جعلهم قادرين على فتح فجوة زمنية يخطفون فيها ما يريدون، هم قد خطفوني وخطفوا والدي بالفعل من قبل، وأنا توصلت إلى سر هذه الفجوة، عندما خُطفت وأنت معي في حقبة ما، واستطعنا جمع هذا الجيش.

نظر له «يحيى» بدهشة وهو يسترجع أفكاره:

- ولماذا القتل وليس الانتحار؟

- إنه سر لا أعرفه، ولكن ربما الدم لا يتدفق من القلب ولا يتجدد إلا

بالقتل وليس باليد، هو سر من أسرار «الدجَّال».

صمت «يحيى» قليلاً.

- وماذا تريدون مني أن أفعله الآن؟

- قبل أي شيء، هؤلاء هم قادة جيوشنا، وهم يعرفونك جيدًا، وسأعرفك عليهم، من باب العلم بالشيء، هذه الطاولة التي نجلس عليها هي الطاولة التي جلس عليها المسيح والحواريون في زمن المسيح الحقيقي وقت العشاء الأخير، أطال الله عمره، قد أتينا بها هنا لتكون شاهدًا على فعلتنا.

- ما أعرفه جيدًا يا «محمد» أن قاتل «الدجَّال» هو المسيح، وأن الجيش سيكون جيش المسلمين.

قاطعه «محمد» قائلاً: هاهاهاها نفس الأسئلة سألتها لي منذ عقود وأجيبك عنها ثانية، المسيح سيظهر عند تحرر «الدجَّال» وسيقتله، وهذا ليس معناه أن نضع أيدينا على خدودنا وننتظر الموت، سنقاتل وسنكون نحن جيشه، أما بخصوص جيش المسلمين، فأنت لم تقرأ الأحاديث جيدًا، يقال إن هناك من صفوف الرومان والعجم من سيخرج ليلتحق بالجيش، الروم أي أوروبا والعجم، أي كل من هو ليس بعربي، «الدجَّال» هو خطر داهم حذر منه الكل، لهذا تجد البوذيين والمسيحيين في صفوف الجيش؛ بل ويعتلون المناصب أيضًا، والآن أعرّفك على قادة جيشك، أشار «محمد» إلى العشرة أشخاص، وقال بالترتيب: «هذا هويونج، سليل أسرة مينج بالصين، وقد انضم لنا عن

طريق الفجوة هو ومعه ألفان من الجنود الملكية».

قال «يونج»: «ني هاوايوي كهان».

وأضاف:

- وهذا الرجل ذو الملابس العسكرية هو جمال عبد الناصر، رئيس مصر وقائد الثورة، انضم لنا عندما أقنعناه بالخطر الذي سيواجهه العرب، وقد انضم لنا منذ عامين هو و١٠٠٠ عسكري مصري.

قال «جمال»:

- «منور يا يحيى».

ابتسم «يحيى» بداخله، إنه بالتأكيد فيلم ما.

- «هذا الأنبا كيرلس بابا الإسكندرية الثاني، وهذا حور محب قائد جيوش مصر الفرعونية، وهذا تشي جيفارا، وهذا وهذا»..

حتى وصل إلى رجل يرتدي ملابس ملكية عربية، وقال: وهذا الحاكم بأمر الله.

والدي. والذي بجانبه هو الإمام الحسن العسكري، والدك.

المعركة

كان «يحيى» مع مرور الأيام يتذكر حدثًا ما عاشه أو شيئًا فعله في كل مرة يُقتل فيها، يرى نفسه الآن وهو يحرر «الدجَّال»، ويرى نفسه وهو يحاول قتل نفسه، كان يتدرب وهو يحتضن والده الذي سنعفيكم عن لحظات المقابلة الحميمية المتوقعة، وكان طوال الوقت يفكّر في «العباسة»، «محمد» قد وعده بأنه عند قتل «الدجَّال» سيرجع له «العبّاسة» وسترجع له «ساندي».

كان كل يوم يتمرّن ويتدرب على القتال، تدريبات أقل ما يقال عنها إنها شنيعة وصعبة، تارة يحرقون خلايا جلده، وتارة يستخدمون معه الكهرباء حتى يوشك على الموت، وتارة أخرى يجري لمسافة طويلة حتى يكاد يلفظ كبده من فمه.

وكان يصبر ويقول لنفسه: «أفضل من الموت، أفضل من الارتحال والموت».

قال والده الإمام وهو يبتسم: «كبرت يا يا عبد الله كثيرًا، أنا فخور بك».

فيبتسم «يحيى» بدوره قائلاً: وأنت يا والدي كبرت أيضًا مع أني لم أرَك أبدًا من قبل، نادِني «يحيى» فقد ترعرعت وأنا «يحيى».

فيتبادلان الهمسات والضحكات ويقصّان ما قد عاشاه حتى يعرف كل منهما الآخر أكثر وأكثر.

تارة يحكي له والده عن تاريخ آبائه وما لاقوه على يد بني أمية والعباس، وتارة يحكي له «يحيى» عن «موسى» و«المسيح» وثورة يناير، فيندهش الإمام ويحتضنه.

- هناك شيء يا أبي يسمى الإنترنت، وهو يتيح لك أن تحدّث شخصًا من أوروبا وأنت في العراق مثلاً.

- فيفتح الإمام فاه في دهشة، ثم يبتسم ويقول: في الجنة سنرى ما هو مدهش أكثر من هذا يا بني، لن أندهش ثانية.

أما «محمد» فكان دائم الاستماع إلى والده الخليفة الحاكم بأمر الله، فكان يسمع منه مواقفه مع جماعة الحشّاشين، وكيف تصرّف مع المعارضين ومنع الاحتجاجات.

جاء «يحيى» ليقول مازحًا:

- لعلمك يا «محمد»، المؤرخ «المقريزي» قد حكى عن والدك الكثير من الطرائف التي كنت استمتع بها في صغري، هل منعت «الملوخية» فعلاً يا سيدي وعاقبت بالقتل من أكلها؟

قال «محمد»:

- هل فعلت ذلك حقًّا يا أبي؟

قال «الحاكم»:

- القصة ليست بهذا الشكل، أنا بالفعل فعلت ذلك ولكن لأن أحد الـ..

قاطعهم صوت يصرخ قائلاً من الخارج:

- «جاءت اللحظة الحاسمة، استعدوا، «الدجَّال» قادم، الدجَّال ظهر».

جمع الجيش أسلحته على عَجَل ووحـدوا صفوفهم بـداخل الجبل استعدادًا للخروج، وخرج «ذو العمامة الزرقاء» و«القتيل» إلى خارج الكهف يحملون سيوفهم وينتظرون ظهور العبيد و«الـدجَّـال»، كان الصوت الذي يتكلم رقيعًا جدًّا، يليق بمراهق أو شاذ، وكان يتحدث بالعربية الفصحى، التفت له «يحيى» و«محمد» متوجسين، كان شابًّا يافعًا يرتدي ما يشبه لباس الجيش الإسرائيلي الأخضر، وعليه اسم المسيح بحروف بارزة، ويضع على رأسه خوذة غريبة الشكل، يحوطه من كل جانب الكثير من الجنود المتحفزين إلـى الهجوم، وجوههم لم تكن عربية أبدًا؛ بل هي أقرب إلى الأوروبية، ذات العيون الملونة، وبياض الوجه وحمار الوجنتين.

صاح «يحيى» إلى «محمد»:

- ها قد حانت اللحظة، لماذا لم يهجم جيشنا إلى الآن؟

قال «محمد»:

- يجب أن نواجهه وحدنا في البداية، بعدما فتحنا البوابات، علينا أن نواجه وحدنا أنا وأنت، وعندها ستشتعل الحرب.

جاءه الجندي اليهودي:

- الرب قادم يا عبيد، اسجدوا.

تقدم «يحيى» سريعًا وحاول في حركة مفاجئة تحرير سيفه ليقتله، ولكن كان الرد غير متوقع، فقد هاجموهما وكبلوهما وسحلوهما فوق الرمال والصخور في بضع ثوانٍ، سُحلا مسافة ليست بالقصيرة، حتى وجدا نفسيهما أمام «الدجَّال»، أصلع الجبهة كعادته، وعلى رأسه تاج مرسوم عليه بالألماس نجمة «داود»، وصولجان على شكل عين تشبه عين «حورس»، أو العين التي على الدولار الأمريكي، كان يجلس على عرش عملاق يسبح في الهواء كأن الريح تحمله، وحوله الحرس من كل مكان يحيطونه بهيبة شديدة.

كان هذا الرجل ضخمًا جدًّا، وأعور العين، أهذه كلمة «كافر» بين وجنتيه؟ كان «يحيى» يحملق، على عكس «محمد» الذي كان يبتسم، ألقاهما الجنود تحت أقدام «الدجَّال» الذي استشف «يحيى» أنه الدجَّال سيد الهلاك، الذي حذر منه كل، فهو لم يقابله من قبل، يعرفه فقط من مواصفاته، تقدم أحد الجنود قائلاً لـ«الدجَّال»: «سيم راك شالوم ميساياه»، وخفض رأسه في تعظيم ووقار، قام «الدجَّال» من على كرسيه، فسجد الكل على الأرض، الجنود والبشر والمكبلون جميعًا، فقد كان المكان يعج بالبشر، اقترب «الدجَّال» من «محمد» قائلاً:

- ذو العمامة الزرقاء، أنت كما عهدتك، خائن، ولكنك رجل، رابط الجأش، شجاع.

التفت إلى «يحيى»:

- والقتيل أيضًا؟ هل اتحدتما أخيرًا لقتلي؟

قال «محمد»:

- أين «ساندي» يا «دجّال»؟

أشار «الدجَّال» إلى أحد عبيده:

- أنا لا أرجع في وعودي يا «محمد»، ها هي.

وأشار إلى يمينه، فوجدها كما هي غائبة عن الوعي، ولكن كانت مكبّلة بالحديد، وكانت تحملها سيدة أجنبية ذات شعر أصفر، إنها والدة «يحيى» أو مربِّيته.

قال «الدجَّال»:

- ألا تريد أن تلقي التحية على والدتك يا «ياااحياااا»؟

قالت: كيف حالك يا «يحيى»؟ اشتقت لكَ يا شقي.

وضحكت ضحكة مريبة حتى قاطعها «الدجَّال» فصمتت.

كان «يحيى» و«محمد» في قمة الغضب بعد هذا المنظر، فـ«يحيى» يريد الانتقام من مربيته، و«محمد» يريد إنقاذ «ساندي»، فحاولا التخلّص من قيودهما ليهجما، لكن إشارة واحدة من «الدجَّال» إلى «محمد» و«يحيى» كانت كفيلة بصعقهما، حتى خارت قواهما.

قال «الدجَّال»:

- كان اتفاقنا أن تنضم إليَّ يا «محمد» وأن تقتل القتيل، ولكنك خالفت

عهدنا، وأنـا قد حذرتك من قبل بـأن الخيانة عندي تعني العذاب الأبـدي، ومن يخالف العهد يفنى إلى الأبـد في جهنم، ولكن قبل أن أفنيك، سأنفي القتيل إلى الأبد في جهنم، وهنـاك ستكونون أصدقاء، وسيكون هنـاك الكثير من الوقت؛ لتحكوا ما سيحدث وتحفظوه جيدًا وسط النيران.

أشار «الدجال» إلى الحرس، فظهر من وسط الجمع والـدا «محمد» وكانا يبتسمن في طيبة وهما يقولان: «اتبعه يا محمد، إنه ربك، إنه سيدك، وهو يحبك».

قال «محمد» موجهًا حديثه إلى «الدجَّال»:

- كفاك سخفًا فهما من جسّاسيك، كما أن والدي الحقيقي بالداخل هل نسيت ما حكيته لي؟

ابتسم «الدجَّال» في خبث، وقال:

- ذكي، حسنًا.

وأشار بيده من دون أن يلتفت، فاحترق الوالدان سريعًا، وأكمل:

- هما ليسوا جسّاسين، هما بشر، وهما كانا يظنـان أنك ابنهما بالفعل.

سوف أريك المزيد.

وأشار إلى أحد الحرس فأخرج له منشارًا عظيم الشكل، أمسك به «الدجَّال» بقوة، واقترب من «محمد»، وفجأة شطره نصفين.

صرخ «يحيى»:

- لاااا.. «محمد».

ونظر له «يحيى»، وقال:

- ستركع تحت قدمَي أيها «الدجَّال».

كان «الدجَّال» وقتها مشغولاً بشيء آخر، كان يسير بين نصفَي «محمد» بتباهٍ وهو يقول: «أنا ربُّكم الأعلى، سأعيد إحياءه إذا سمعت المسيح ربي ثلاث مرات».

صرخ الجنود: «المسيح ربي.. المسيح ربي.. المسيح ربي».

فحرّك «الدجَّال» يده تحت عينَي «يحيى» فاجتمع شطرا «محمد» ثانية والتحما، ثم أفاق «محمد» وهو يسعل كمن كان يغرق.

قال «الدجَّال»:

- الآن هل اقتنعت؟

قال «محمد»:

- نعم اقتنعت -ووجّه رأسه إلى «يحيى»- اقتنعت بأنك كاذب أيها «الدجَّال».

عمَّ الصمت أرجاء المكان، دقائق كثيرة مرت والحرس يهمسون بينهم وبين بعضهم.

صرخ «الدجَّال» وشظايا الغضب تمطره:

- والآن استعد لجهنم أيها الكافر بي.

نظر «يحيى» الذي حفظ الخطة جيدًا، ووقف على قدمه حاملاً قيده، وقال:

- أيها «الدجَّال»، لن تستطيع فعل هذا.

قال «الدجَّال»:

- بل سأستطيع.

- لن تستطيع، فدماؤك مخلوطة بدمائي، وما لا تعرفه أن دمائي قد خلطت مع دماء ذي العمامة الزرقاء، لن يموت أحد منا إلا بموتك..

تحوّل وجه «الدجَّال» في لحظة إلى الغضب، عندها فقط صاح «محمد» بكل ما أوتي من قوة:

- الآآآآآآآن.

جحافل عريضة ظهرت وأخذت تقترب من الحشد، صاح أحدهم إلى «الدجَّال»:

- أي رب، الخونة يتقدمون، ماذا نحن فاعلون؟

صاح وقال:

- إنها المعركة، انتشرواااا.

ترك الجنود «محمد» و«يحيى» مكبلين وانسحبوا إلى الجيش؛ للاستعداد لملاقاة الجيش الآخر، فانسحب «محمد» و«يحيى» إلى

جانب جيشهما، وهما يزيلان بقايا القيود، وتقدّم «يونج» بخيل وسلاح إلى كل من «القتيل» و«ذي العمامة الزرقاء»، لملموا جراحهم وامتطوا الخيول وصاحوا في الجيش «هجووووم»، وأشاروا بسيوفهم في اتجاه «الدجَّال»، قال «يحيى» وهو يجري بخيله إلى جانب «محمد»:

- هل ظهر المسيح بعد؟

قال «محمد»:

- نتمنى أن يظهر في أي لحظة، احذر من هذا الزر بجانب السرج فهو من اختراع «تسلا».

- وماذا يفعل؟

- يطلق كهرباء يصيب فيها بشلل.

أخذ «محمد» و«يحيى» يركضان حتى صارا بداخل المعركة، كانت معركة قوية جدًّا، العالم كله يصارع بعضه، أبطال التاريخ يصارعون جنود «الدجَّال»، «الدجَّال» ينسحب كل دقيقة إلى الخلف ويحفّز جنده للمقاومة، ولكن جيش ذي العمامة الزرقاء كان كبيرًا وقويًّا بحق، ها هو ذا جمال عبد الناصر يخترق بسيفه إلى داخل قلب أحد اليهود، وها هو ذا «حور محب» يمزّق كل مَن طالته يداه.

صرخ «محمد»:

- أطلقوا العماليق والجن.

نظر اليهود باتجاه الصوت، وإذ بالرمال تنقشع من كل حدب؛ ليتكشف

عن عماليق يزيد طولها عن الخمسة أمتار يلبسون الدروع ويحطمون الصخور لمجرد ركضهم بجانبها، وقبل أن يهربوا كان الجن يحيط بهم من كل اتجاه، ويصنعون ما يشبه الدوامة الرملية نحوهم حتى وصل العماليق ودهسوهم.

صرخ «يحيى»:

- «تسلا»، الكهرباء.

ظهر «تسلا» وهو يمتطي ظهر حصان صغير، ويدوس على زر ما، فجأة أنارت سروج الأحصنة وصهلت فكونت دائرة استاتيكية خرج منها الشرر في كل صوب تصيب صدور العدو فتقسم صدر أحدهم نصفين، كان «يحيى» و«محمد» يهتفان فرحَين: «سننتصر».

أمر «الدجَّال» السماء أن تمطر فأمطرت، وأشار بيده إلى الجسَّاسين ليبدأوا الهجوم وتراجع هو قليلاً.

كانت الجسَّاسة سريعة جدًّا فوق الوصف، ولكن قاوم الجند كثيرًا، أصيب «قطز» في ذراعه، وسقط من على حصانه، وهو يصرخ: «واإسلاماه» فأجهز عليه الحرس.

تراجع «محمد» و«يحيى» قليلاً وهما يحاولان تدارك ما يحدث.

سقط المئات من كل جيش، وحان الوقت للخطة البديلة.

باقي الجيش وبعض القادة كانوا في انتظار دورهم، كانوا يقبعون بجانب الجبل بين جيش «محمد» وجيش «الدجَّال»، وعلى رأسهم الإمام

الحسن العسكري والحاكم بأمر الله، عندما أشار لهم «محمد» بإطلاق شرارة الكهرباء بدأوا يتحرّكون، كوَّنوا ما يشبه الحلقة حول الجيشين، فحاوطوهم، ثم أشار «الحاكم» إلى المنطقة التي وقف فيها «محمد» و«يحيى» وكونوا ما يشبه المخرج، وأشار «الحاكم» إلى «هتلر» الذي ظهر في الأفق، وقال له: «أخرج «محمد» و«يحيى» الآن.

أعطى «هتلر» ظهره إلى الجيش، وأشار بطريقته في التحية برفع الذراع إلى الأمام مع فرد الكف، وقال: «الآن».

ففتح الجيش مخرجًا صغيرًا وقال:

- اعبر الآن يا «محمد»، وأنت يا «يحيى» اقتحم.

فخرج «محمد» واتجه «يحيى» إلى الجمع، في حين كان النصر محلقًا بين صفوف جيش «القتيل»، يتقدمون وهم يقتلون كل ما قابلته أيديهم، نظر «يحيى» إلى الأمام، فرأى «الدجَّال» يأخذ «ساندي»، وينسحب ببطء بعد أن علم بأنه خاسر لا محالة، صرخ «يحيى» إلى ذي العمامة الزرقاء قائلاً:

- «ساندي» يا «محمد».

نظر «محمد» إليهم، وقال:

- هي فرصتنا الأخيرة يا «يحيى»، إما أن ننتصر ونتحرر، وإما أن يقتلنا.

تنهد وأضاف سريعًا:

- ابحث عن الحاكم بأمر الله وتعالَ معه، فهو سيكون القائد الجديد.

بحثوا عنه سريعًا حتى وجدوه يهشّم رأس أحد اليهود في الجانب الأيمن بجوار «المنصور»، صرخ له «يحيى» وقال: «اذهب بسرعة يا سيدي وخذ الراية من يونج، أنت القائد الجديد».

قال «الحاكم»: وأنت أين ستذهب؟

قال «يحيى»:

- لا تخف عليَّ يا سيدي، أنا قائد ولن أموت بهذه السهولة فقد قُتلت مئات المرات، حافظ على الجيش والدولة من أجلنا، وألقِ بسلامي إلى أبي الحسن.

- وأين ابني «محمد»؟

- ينتظرك هناك.

وأشار باتجاه الجبل، قال «الحاكم»:

- كم أنا فخور بكم يا «يحيى»!

احتضنه كثيرًا ثم تركه باحثًا عن «يونج»، أما «يحيى» فقد اتجه صوب عرش «الدجَّال» مسرعًا بالفرس، أشهر سيفه وقتل كل مَن كان يعترض طريقه.

اعترضت طريقه والدته التي ربّته، وقالت:

- لن تمر إلا على جسدي يا.. يا ابني.

للمزيد من الحصريات موقع sa7eralkutub.com
جروب الفيس بوك fb/groups/Sa7er.Elkotob/

رفع «يحيى» سيفه، ولكن توقف وهو يتذكرها، إنها والدته التي كثيرًا ما خافت عليه وشرب الشاي من يديها، هو ما زال يحبها.

كان هو شاردًا متوقفًا عن التفكير فلم يلاحظ أنها كانت تضحك بهيستيريا وهي تخرج خنجرًا من طيات ملابسها، ورفعته إليه وهي تقول: «الوداع يا ولدي».

وقبل أن يلامس الخنجر صدره سقطت على الأرض، اندهش «يحيى» وهو لا يعلم ما يحدث، فرأى والده من الخلف، وهو يخرج نصل سيفه من ظهرها، وقال: لن تُقتل بعد اليوم يا ولدي، فأنا هنا لأحميك.

احتضنه بقوة وعيناه تفيضان من الدموع، فنهره «الحسن» عن البكاء، وقال:

- الرجال لا يبكون، هيا فلتنقذ «ساندي» يا ولدي، سأراك قريبًا.

في صعوبة تركه «يحيى» وهو يبتسم له، ويرفع سيفه لتحيته، ثم نظر إلى الخلف فوجد والده «الحسن» يطعن هذا ويقتل ذاك، وهو يكبّر ويتجه صوب «محمد»، ورأى «محمد» يشق طريقه ببسالة على أشلاء اليهود، فامتطى «يحيى» ظهر جواده، وركض به حتى قارب الوصول إلى «الدجَّال»، فقفز من فوق فرسه بسيفه على صدر أحد اليهود، وترجل مسرعًا وهو يوجه سيفه باتجاه عرش «الدجَّال»، وصل إلى «الدجَّال» سريعًا الذي كان يستعد للرحيل.

صاح «يحيى»:

- اترك «ساندي» يا دجّال وأعدك بأن تكون ميتتك سريعة.

ضحك «الدجَّال» وهو ينظر إلى القتيل وأشار ذو العمامة الزرقاء قائلاً في توحش:

- أتظن أنك ستقتلني؟ تذكر دروسك الدينية يا «محمد»، المسيح هو من سيقتلني، «محمد» هو مَن سيحاول.

ورفع «ساندي» عاليًا وهو يرتفع قليلاً ببطء إلى السماء، والسماء تغيم بسحبها السوداء، والشرر يتطاير من يده، وكأنه يستعد لإلقائها بعيدًا.

صرخ «محمد» من بعيد:

- «لاااااااااااا».

وترك الكل وركض بجواده سريعًا حتى وصل إلى الحدث، وقفز عاليًا من فوق الجواد ليمسك بقطعة من السلسلة التي تكبّل قدم «ساندي» الغائبة عن الوعي، وفجأة، ألقاها بعيدًا هي و«محمد»، وهو يقول: «راسلني عندما تصل إلى جهنم يا ذا العمامة الزرقاء».

قال «يحيى»:

- «محمد» لم يمُت، فدماؤه هي دماؤك، وأنا سأقتلك يا دجّال.

قال «الدجَّال»:

- وأنا سأرسلك له يا «قتيلي».

وهجم عليه «الدجَّال» بجسده القوي، وأشهر «يحيى» سيفه في محاولة

للدفاع عن نفسه، حرّك سيفه على يد «الدجَّال»؛ ليبعد ضربة كادت تودي بحياته إذا لامسته، وبكل ما أوتي من قوة في مشهد بطيء كمشاهد السينما، غرز «يحيى» سيفه في صدر «الدجَّال».

- نسيت أن أقول لك إن هذا السيف مغطّى بدمي، ولا يقتل الدم إلا الدم.

أمسك «الدجَّال» بـ«يحيى» بلا مبالاة من الجرح الذي أصابه من السيف، وقال:

- رحلة سعيدة.

ورجع خطوتين إلى الوراء ثم قذفه، ازداد الشرر في السماء الغائمة والأمطار، و«الدجَّال» يقذف «يحيى» بعيدًا إلى السماء، كان «يحيى» يطير بسرعة جنونية وهو يستجمع ذكرياته التي مر بها:

الفراعنة..

العبّاسة حبيبته..

الهكسوس..

موسى..

نوح..

محمد علي..

اللي بنا مصر كان في الأصل حلواني..

طوسون..

التتار..

يحيى الذي يُقتل..

يحيى الذي يموت..

الفرنجة..

الشعب يريد إسقاط النظام..

طاااااااااااااااااااخ..

آخر ما سمعه قبل أن يذهب إلى السماء: «المسيح قد ظهر».

أغمض عينيك.

استيقظ «يحيى» في مكان يشبه الحديقة، طيور غريبة تطير فوقه، أصوات زقزقة ولكن غريبة الشكل، أشجار عملاقة، قال:

- هل توفيت؟ أنا في الجنة؟

نظر حوله فلم يجد شيئًا يوحي بالغرابة عدا أحجام النباتات والطيور، كان هذه المرة بملابسه كاملة كما كان يرتديها، ولكن منسقة بشكل غريب، فتّش في ملابسه عسى أن يجد شيئًا يخبره عما يحدث وأين هو الآن؟ وجد رسالة مكتوبة بحبر أحمر على جلد قديم مهترئ، مكتوبة بالعربية، ولكن الحبر الأحمر كان متجلطًا كالدماء، تشمم رائحتها،

نعم هي دماء، وقرأ فحوى الرسالة:

(عزيزي «القتيل»:

أكتب لك من الجنة التي سأعيش فيها إلى الأبد مع حبيبتي «ساندي» التي استفاقت وتذكرتني بعكس ما كنت أتوقع، كنت أتوقع أن تنسى الأحداث، ولكن أراد الله أن تتذكر وتقبل الوضع، نعم، جهنم «الدجَّال» بالنسبة إلى المسلم تكون جنّة كما وعدنا الله، وبالجمالها من جنة، بيوت وحدائق جميلة لعلك تراها يومًا ما.

نعم، دمّك قد خلط بدم «ساندي» ولن نموت إلى قيام الساعة، ولن نغادر هذه الجنة حتى يأذن الله بميعاد الساعة، لك أن تعرف أن المسيح قد ظهر وقتل الدجَّال، وأنت تعرف البقية، الرسالة هذه أوصلتها لك عندما ألقاك هو في الجحيم وبموت الدجَّال تحررت أنت، وقد تكون هذه هي رحلتك الأخيرة، فحافظ على حياتك جيدًا، أما أنت ومصيرك، فستقرره أنت، إما أن تقتل نفسك وتعود إلى زمنك، تعيش مع مربيتك، وإما أن تحافظ على نفسك لتنالَ ما كنت ترجوه، أرسل سلامي إلى «العبّاسة» يا «عبّارة».

أخوك ذو العمامة الزرقاء).

فجأة ظهر من العدم دياصور عملاق من وراء الأشجار العملاقة، اعتلت ابتسامة عريضة وجه «يحيى» وأخذ يركض في اتجاه الصوت بجنون والفرحة العارمة تجتاح قلبه، كان يركض وهو يقول:

- أنا قاااادم.. قاااااادم.

ظهر ديناصور أمامه، ولكنه لم يوقف ركضه، كان يركض بأسرع ما لديه وهو يقفز من فوق الأوراق المتناثرة والحشرات العملاقة وهو يقول: «قاااااااادم».

أسرع في ركضه، وقفز داخل فم الديناصور الذي انفتح على آخر، وصرخ بأعلى صوت له:

- «قاااااااااااااادم يا عبّاااااااااسة».

المؤلف في سطور

محمد أمير ، من مواليد القاهرة ١٩٩١

شرقاوي الاصل ، يعمل موظفًا فى اتصالات مصر

يعزف على آلة الناي

بدأ مشواره الأدبي منذ نعومة أظفاره، و لكن لم تتسنّ له فرصة للنشر حتي العام ٢٠١٤

فاز في مسابقات أدبية على المستوى المحلي مثل مسابقة مقام وغيرها

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com